

بين علم النفس والقرآن

الولد

تأليف
الدكتور سمير فرج

تقديم
فضيلة الدكتور محمد سيد طنطاوي
مفتي جمهورية مصر العربية

١٩٨٩

محتويـــــات الكتـــــاب

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديـــــــم

بقلم: مفتى جمهورية مصر العربية
فضيلة الدكتور محمد سيد طنطاوى

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ومن والاه.

وبعد:

فان الولاء للحق، دليل على قوة الايمان، وعلى سلامة اليقين، وعلى طهارة النفس، وصفاء القلب. وهذا الكتاب عن «الولاء» الذى كتبه الأخ الكريم الدكتور سمير فرج، جمع فيه بين توجيهات القرآن الكريم، وبين نظريات علم النفس، وهو جهد مشكور أسأل الله - تعالى - أن يجزيه عنه أفضل الجزاء.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

محمد طنطاوى

مفتى جمهورية مصر العربية

مقدمـــــــــة

حاولت فى هذا الكتاب ان أتناول مفهوم الولاء من جوانب متكاملة .. وأن أقيم مدخلا لنظرية نفسية تضع له أساسا علميا حتى يمكن متابعة دراسته .. أخذا فى الاعتبار وجهات النظر الاسلامية والاجتماعية والسياسية .. اذ أن الولاء كما أنه ظاهرة سيكولوجية بالدرجة الاولى فهو مسألة جامعة تحتاج الى معالجة شاملة . وأرجو أن يكون الأسلوب ملائما للقارىء المتخصص فى علم النـفس وغيـر المتخصص فيه ..

والله ولى التوفيق

د . سمير فرج

مصر الجديدة ـ يناير ١٩٨٩

الفصل الأول

مفهوم الولاء

- في اللغة العربية والقرآن الكريم
- وجهات النظر
- تحليل لمصطلح الولاء
- كيف يتولد الولاء ؟

الفصل الأول

مفهـــوم الـــــولاء

فى اللغة العربية والقرآن الكريم:

فى لغتنا العربية.. تعنى كلمة الولاء: المحبة والنصرة. ولفظ «الولى» يعنى المحب والنصير. هكذا تدلنا معاجم اللغة على العنصرين الأساسيين اللذين يقوم عليهما مفهوم الولاء وهما: «الحب» و «النصرة». أى حب موضوع الولاء والعمل من أجل رفعته ونصرته.

وفى المقابل .. نجد أن قواميس اللغات الاجنبية - الانجليزية على وجه الخصوص - تشرح على الأغلب كلمة الولاء Loyalty بمعنى نصرة الملك أو الحاكم من قبل رعيته دون أن تتعرض للبعد العاطفى. ولاشك أن النصرة التى تصدر عن حب - كما تنص معاجم اللغة العربية - هى أفعل وأولى من تلك التى تأتى عن اذعان.

واذا كان الله جل جلاله قد اختار اللغة العربية لتكون هى لغة القرآن المجيد، فمنه ايضا نلتقط معنى جميلا وفريدا لكلمة «ولاء». تقول الآية الكريمة [إن وليّىَ الله الذى نزّل الكتاب وهو يتولى الصالحين] (الاعراف - ١٩٦). هنا نجد الولاء، ليس طريقا للطاعة فقط من الادنى الى الاعلى، ولكنه ذو اتجاهين، طاعة من العبد للرب، ورعاية من الرب للعبد. ولفظ الولاء له كلا المعنيين. فتقول «الله وليك» أى حافظك وساهر عليك. كما تقول «المؤمن ولى الله» أى مطيع له.

فالله تعالى يعلمنا ان قضية الولاء لا تشكل واجبات فقط على الفرد نحو الموضوع او السلطة التى يتجه اليها بولائه، ولكنها تشكل فى نفس الوقت حقوقا لهذا الفرد لدى ذلك الموضوع أو تلك السلطة. فواجب الطاعة على الفرد قد استحضر حق الرعاية من الله [الله ولى الذين آمنو يخرجهم من الظلمات الى النور] (البقرة ٢٥٧).

عرفنا أن الولاء قوامه المحبة والنصرة، فهل نجد فى القرآن الكريم، وقد دلّنا على ان الولاء معنى متبادل بين الادنى والاعلى، هل نجد فيه المحبة والنصرة يتبادلهما العبد والمعبود؟

نعم .. فعن المحبة يقول الله سبحانه [قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله] (ال عمران – ٣١) . وعن النصرة يقول تعالى [يا ايها الذين امنوا ان تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم] (محمد – ٧) . ولا حاجة بنا لأن نشير الى الفرق بين عطاء العبد من حبه ونصرته لله الغنى، وعطاء الرب من حبه ونصرته لعبده الفقير، فكل يعطى بحسب قوته .. ولا حول ولا قوة الا بالله .

وتفرق المعاجم العربية فى المعنى بين كلمتى « الولاء » و « الانتماء » ، رغم أن البعض يستخدمهما احيانا كمترادفين، فيقول الانتماء للوطن حين يقصد الولاء للوطن أو العكس . ففى المعاجم نجد « انتمى اليه » بمعنى « انتسب اليه » ، والانتماء يعنى النسبة، ، وينسب الى ما يوضح ويميز من أب وأم وقبيل وبلد وصناعه وغير ذلك . فيكون الانتماء إذن كمفهوم ، أدنى مرتبة من مفهوم الولاء . فالولاء يتضمن الانتماء أو قل الشعور بالانتماء . فلن تحب موضوعا ما وتعمل من أجل نصرته ورفعته دون أن تشعر بأن هناك ما يربطك به . ولكن العكس غير صحيح ، أى أن الانتماء لا يتطلب بالضرورة الولاء . فقد يوجد من ينتمى الى بلد وينتسب اليه ولكنه لا يشعر بالحب المتوقع نحوه ، واذا شعر بحبه له فقد يحجم عن التضحية المخلصة من أجل نصرته . هنا يكون مفهوم الانتماء اقرب الى مفهوم « الجنسية » . وحتى اذا قيل « الشعور بالانتماء » فإن أقصى ما يوحى به هذا المصطلح هو ما يفهم من كلمة انتساب مضافا اليه عاطفة الحب لمن ينتسب اليه ، ولكن يظل قاصرا فى مضمونه عن مصطلح الولاء الذى يتضمن الانتماء ويقوم على المحبة والنصرة . وعلى ذلك فلا ينبغى أن نساوى بين مفهومى الانتماء والولاء .

فاذا كانت اللغة هى وعاء الفكر ، فإن لغتنا العربية تدلنا اذن على أن ما يساعد على تحقيق فكرة الولاء فى اكمل صورها ، أن يتوفر لها كل من: الانتماء، والحب، والنصرة، والعطاء المتبادل بين المولى والوالى .. ذلك العطاء المخلص المنزه الذى يقوم على التضحية ولا تشوبه الأنانية .

ولاشك ان المؤمن الحق فى علاقته بالله جل شأنه يدرك فى نفسه هذه الدرجة العليا

من درجات الولاء . فهو ينتمى بكل طاقته الى دين الله ، ويعبد ربه عن حب لذاته سبحانه ، ويضحى بكل ما يملكه وبحياته فى سبيل إعلاء كلمة الله ، واثقا ان الذين يقتلون فى سبيل الله أحياء عند ربهم يرزقون . ان المؤمن الحق وهو يستشعر ولاءه لربه يستشعر ا يضا ولاية الله له [والله ولى المؤمنين] (ال عمران - ٦٨) ، ويعرف ان من تقرب الى الله ذراعا تقرب الله اليه باعا ، واذا أتى الى الله ماشيا أتاه مهرولا ، وأن الله يباهى به ملائكته الاطهار ، فإسلامه لربه ينصره ، وعبوديته لله تعزه .

على اننا ننوه هنا ان هذا الولاء الأمثل قد تحقق بين أكمل الخلق أجمعين ، محمد عليه الصلاة والسلام ، الأسوة الحسنة ، وبين الله رب العالمين ، الذى لا إله إلا هو ، ليس كمثله شىء . فما بالنا اذا تغير المولى وتغير الوالى ؟ وماذا يكون حال الولاء الذى يقوم بين الفرد ووالديه ؟ أو بين المواطن والحاكم ؟ . لا شك ان اختلاف الافراد فى سماتهم وحاجاتهم وثقافاتهم ينتج عنه اختلاف فى الولاءات ، سواء كان اختلافا كيفيا ، حبا أو كراهية .. نُصرة أو عدوانا ، أو كان اختلافا كميا ، كثرة أو قلة .. شدة او ضعفا .

هناك اذن ولاء حق وولاء باطل ، كما أن كلا منهما قد يتصف بدرجة من درجات القوة او بدرجة من درجات الضعف . فنجد الولاء الحق القوى والولاء الحق الضعيف ، على مثال « المؤمن القوى خير من المؤمن الضعيف وفى كليهما خير » . ونجد ولاء باطلا طاغيا وولاء مشوبا يسيرا ، على مثال الكافر الملحد والمتدين الضال وفى كليهما شر .

ان القرآن الكريم يشير فى أكثر من موضع الى التمييز بين درجات الولاء الحق كما فى قوله تعالى [لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضَّل الله المجاهدين بأموالهم وانفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى وفضَّل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيما] . (النساء - ٩٥) . أما عن الدرجة الوسطى فيمكن ان .....
نتبينها من قوله تعالى [وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا

عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم] (التوبة - ١٠٢) . بينما نجد أن الله سبحانه وتعالى قد يغفر السيئات بدرجاتها المختلفة لمن يشاء ، ومشيئته حق ، إلا تلك السيئة الكبرى ، وكأنها الخيانة العظمى ، وهى الشرك به كما جاء فى القرآن الكريم [إن الله لا يغفر أن يُشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا] - (النساء - ١١٦) .

الــــــولاء درجـــــات

للولاء إذن درجات وليس كما يطيب للبعض أن يقسم الناس أو القيم أو الاشياء الى قسمين أو إلى لونين فقط ، خير وشر .. أو أبيض وأسود . هذا التقسيم الثنائى قد يكون مريحا لهم ، ولكنه يطمس الحقائق ولا يظهر الفروق التى تساعد على إعطاء كل ذى حق حقه [ولكل درجات مما عملوا] (الاحقاف - ١٩) . فللولاء درجات ، منها الدرجات العليا التى ننحنى لها احتراما وتقديرا ، ويقابلها الدرجات السفلى التى نرفضها ازدراءً واحتقاراً، وبين هذه وتلك ، توجد درجات نقبلها بترحيب أو على مضض ، أو لا نقبلها دون إصرار على عقاب بل هى تدخل فى عداد الأمر الواقع الذى يحتاج اكثر الى إرشاد واعلام [فذكّر ان نفعت الذكرى] (الاعلى - ٩) .

وفى واقع حياتنا يمكن ان نقع على أمثلة متعددة لدرجات الولاء المتباينة . ففى زمن الحرب - على سبيل المثال - يتكثف الاعلام بشتى وسائله لحث المواطنين على التبرع بكل ما يستطيعونه ، ومع ذلك فالتبرعات تختلف فيما بينها باختلاف الافراد . نجد من يتطوع للقتال ضمن المقاومة الشعبية ساعيا الى ان يكون ضمن الصفوف الاولى التى تلتحم مع العدو . ويكون فى تطوعه هذا مخلصا أصيلا لا يبغى سوى الفداء للوطن ، ولايشوب تضحيته هذه شائبة السعى للفوز بتقدير الآخرين أو الوصول الى مكانة أو منصب . ونجد آخرين يتطوعون بالمال . وهنا

تكون نسبة مقدار المال الذى يتطوع به الفرد الى مقدار المال الذى يمتلكه مؤشرا هاما للدلالة على القيمة المعنوية لعطائه . فمن يتبرع بخمسين جنيها وهو يملك مائة ، يكون أفضل ولاءً ممن يتبرع بألف وهو يملك مليون . ومن الناس من يتبرع بالدم .. وتختلف كميات الدم المبذولة ايضا . ومنهم من يتطوع بجهده للخدمة فى المجالات المتاحة فى الجبهة الداخلية كأعمال الوقاية من الحريق والاسعاف الطبى والمواساة فى المستشفيات . كما نجد من المواطنين من يبادر من تلقاء نفسه بتخفيض استهلاكه من المواد الغذائية ، هذا بالاضافة الى أن الغالبية العظمى من أفراد الشعب تقبل راضية قرارات الدولة فى تخفيض مخصصات الفرد من مواد التموين والعمل بنظام بطاقات الطوارىء توفيرا لمتطلبات جبهة القتال .

فبرغم أن الدعوة للبذل والعطاء والتضحية من أجل الوطن تُوجَّه الى جميع المواطنين فى نفس الوقت وبنفس القوة ، الا أن التبرعات تتنوع وتتدرج فى قيمتها . أضف الى هذا ، أن عدد الافراد يختلف من تبرع الى آخر . فلاشك ان عدد المواطنين الذين يتقبلون قرارات الحكومة فى تخفيض استهلاك الفرد من المواد التموينية يفوق كثيراً عدد المواطنين الذين يتطوعون للقتال . إلا أننا نعتبر جميع هؤلاء المواطنين موالين لوطنهم وإن اختلفوا فى درجات الولاء باختلاف قيم التضحيات .

وعلى خلاف هؤلاء ، نجد بعض المواطنين يندفعون الى تخزين المواد الغذائية ، ربما بما يزيد عن حاجاتهم الفعلية ، خوفا من نقصها من جراء الحرب . أى أن كفة أنانيتهم وحبهم لأنفسهم زادت وزنا عن كفة ولائهم وتضحياتهم من أجل وطنهم ، ومع ذلك فلا نتهمهم بالخيانة لأنهم فى سلوكهم السىء هذا لم يترددوا بعد الى هذه الدرجة البغيضة من عدم الولاء ، وقد نجد لهؤلاء المواطنين أعذارا مخففة بالنسبة لظروف الحرب وازماتها الاقتصادية [ان الانسان خلق هلوعا] (المعارج - ١٩) . وحين نهبط مع مثل هذا الولاء الباطل الى ادناه ، نجد افرادا -

قلة قليلة من بين جموع المواطنين – يلقون بأنفسهم فى أحضان الخيانة مع العدو ، ربما من اجل قليل من المال ، فيتجسسون لصالح العدو ضد وطنهم ، أو يشكلون ما يسمى بالطابور الخامس الذى يعمل على تخريب بلدهم . بالنسبة لهؤلاء الخونة ، لا يتردد الشعب والحاكم عن إنزال أشد العقاب بهم . وبين هذه وتلك توجد أيضا درجات مختلفة من الولاء الباطل ، كل بحسب شرها وضلالها .

ان الولاء كما يختلف باختلاف الافراد ، كل بحسب حاجاته ودوافعه وتكوينه ، فإنه يختلف ايضا باختلاف الموضوعات التى يتجه اليها الولاء . فقد يكون الموضوع الذى يستقطب ولاء الفرد شخصا أو جماعة ؛ أو يكون موضوعا معنويا كمبدأ أو قضية أو إيديولوجية أو دين . هذه الموضوعات تختلف أهميتها من فرد لآخر ، بل إن أهميتها قد تختلف من وقت لآخر فى نفس الفرد . ينشأ عن ذلك ان الولاء نحو نفس الموضوع يختلف من فرد لآخر كما قد يختلف من وقت لآخر فى نفس الفرد . ويمكن التعرف على أمثلة تبين أن فردا أو قطاعا من قطاعات شعب ما قد تغير ولاؤه من قوة الى ضعف أو من ضعف الى قوة أو من نقيض الى نقيض تجاه نفس الحاكم فى مراحل مختلفة من فترة ولايته .

على أن ما يزيد المشكلة تعقيدا فى بعض الاحيان ، أن الفرد عادة ما يتوجه بولائه نحو أكثر من موضوع ، أى انه فى الواقع لا يعايش ولاءً واحدا بل ولاءات متعددة نحو موضوعات متعددة ، سواء تمثلت تلك الموضوعات فى اشخاص كالوالدين او رؤساء العمل أو رئيس الدولة ، أو تمثلت فى مُثُل أو مبادىء او ايديولوجيات . وعلى ذلك فالفرد غالبا ما يواجه مشكلة اختلاف الولاء وتغيره سواء فى صورتها الرأسية التى تنتقل من الضعف الى القوة أو العكس ، أو فى صورتها الأفقية التى تنتقل فيها من موضوع لآخر . هذه الاختلافات والتغيرات المحتملة لا نضمن حدوثها داخل الفرد على نسق واحد أو فى انسجام كامل فى كل الاحوال . ومن

المحتمل إذن أن تنشأ تناقضات وصراعات بين بعض الولاءات داخل الفرد ، خاصة وأن المسألة كلها تتوقف على طريقة ادراك الفرد لها ، ومن ثم يشقى الفرد ويفقد توافقه الداخلى .

****

وجهـــــات نظـــــر

نعرض فيما يلى وجهات نظر فى مسألة الولاء لنخبة من المفكرين البارزين ، نأمل ان نصيب بها اكثر من فائدة . فأولا - هى تساعد على تحديد موضوع دراستنا هذه عن الولاء وتوضح ما فيه من تساؤلات ، كما أن تباين مضموناتها واختلاف ما تحتويه من آراء يثبت أن هناك بعضا من هذه التساؤلات مازال فى حاجة الى اجابة حاسمة . وثانيا - قد يجد القارىء نفسه مؤيدا لوجهة نظر معينة واذا به يقرأ وجهات نظر اخرى لها مبرراتها القوية فتزداد المسألة وضوحا فى ذهنه . وثالثا - فكون هذه الآراء المتباينة أو المتعارضة أحيانا قد قيلت من صفوة من أهل الفكر ، فإن كل رأى منها غالبا ما يعبر عن توجّه قطاع من المجتمع جدير بالالتفات إليه ، هذا فضلا عن أن مثل هذه الآراء المحترمة تثرى هذه الدراسة وتساعد على بلورة وجهة نظر شاملة ومفيدة بالنسبة لمسألة الولاء .

فى مقال له بعنوان « أنواع الولاء » قال **احمد بهجت** : « الولاء انواع كثيرة . هناك ولاء المرء لنفسه .. وهناك ولاء المرء لابيه وأمه ... وهناك ولاء المرء لأسرته ، وعمله ، وناديه ، وشارعه أو حيّه ، أو قريته ، أو مدينته .. وهناك ولاء المرء للحاكم فى أمته ... وهناك ولاء المرء لوطنه ، وهذا ... ولاء شامل تدخل فيه ذكريات المرء ومكوناته النفسية والعقلية والروحية ... وهناك ... الولاء للرسول (نبى الاسلام) .. وأخيرا هناك ولاء الانسان لله جل شأنه ، وهذا هو الولاء الحقيقى وما عداه من أنواع الولاء صور لا تضر ولا تنفع » [٢] .

وفى مقال آخر بعنوان « مصر .. وتيارات الولاء المزدوج » قال لمعى المطيعى : « الولاء للوطن ، الولاء لمصر يجب (وليس ينبغى) ألا نشرك به ، بالولاء لحظة واحدة لدولة اخرى اجنبية أو عربية ، مسلمة أو مسيحية أو يهودية ، أيا كان المذهب السياسى الذى نأخذ به ، وأيا كانت العقيدة الدينية التى نؤمن بها ، بل وأيا كان موقف المواطن المصرى من الحاكم ، وأيا كان موقف الحاكم المصرى من هذا المواطن ... ولسنا ضد أن يكون لبعض المصريين علاقات متميزة فى بلاد اخرى ، ولكن شريطة أن تكون هذه العلاقات لخير المواطنين جميعا ولخير الوطن جميعه . والخيط رفيع ودقيق ، إذ أن الصراع بين الدول شرس ولا يتردد ابدا فى أن يستغل هذه العلاقات » (٢٠) .

وفى مقال ثالث بعنوان « ليكن ولاؤنا لله والوطن » قال د . عبد المنعم النمر : « من منطلق الولاء لله يكون الولاء للوطن وللارض التى نعيش عليها باعتبار ان الوطن هو الارض التى درجنا عليها ودرج آباؤنا وأجدادنا ، وعلى هذه الارض عاش الشعب الذى أدى ويؤدى رسالته للاسلام ، وباعتبار ان عزة الوطن عزة للاسلام ، وعزة الاسلام عزة للوطن وللشعب... بعض الناس قد ينفر من كلمة الولاء للوطن والارتباط به ، مع ان الولاء للوطن نابع من الولاء للاسلام ، لان الاسلام يفرض علينا ان نقوى شأن وطننا... ولان الاسلام لا وجود ولا كيان له إلا ببشر يعتنقونه ويدافعون عنه ، وهؤلاء البشر لابد ان يعيشوا على أرض يقيمون عليها ويقيمون شعائر الاسلام فيها ويعزون كلمته... فلا مجال إذن للتفرقة بين الاخلاص للدين والاخلاص للوطن لانهما متشابكان متتابعان لا ينفصل أحدهما عن الآخر فى نظر الاسلام » (١٧) .

وفى كتابه « السياسة العالمية » قال أورجانسكى : « إن المصريين – ومعظمهم مسلمين – قد يحاربون اسرائيل من منطلق الولاء لمصر أو من منطلق

الولاء للاسلام ، برغم انه من الناحية العملية تكون النتيجة واحدة . وبالمثل فإن روسيا الشيوعية قد تحرض شعبها على القتال من أجل الشيوعية أو من أجل روسيا . والامريكيون قد يحاربون من اجل الديمقراطية أو من اجل حماية نمط الحياة الامريكية ... إلا انه قد يعتنق جزء فقط من الشعب ولاءً يتجاوز حدود وطنه ، ولهذا فسيكون له حينئذ تأثير انقسامي وأثر سلبي يمنعهم من مساعدة وطنهم ضد هؤلاء الذين ينتمون الى نفس الولاء . فاليهود الامريكيون يصعب عليهم تدعيم اى سياسة امريكية تكون فى صالح العرب وضد إسرائيل » .

ويستمر أورجانسكى : « ان الولاءات تجاه الجماعات الصغيرة داخل الوطن هى ايضا قد تنافس الولاء القومى وتقلل من رغبة اعضاء هذه الجماعات فى التضحية من اجل الاهداف القومية ... ان الولاء للذات والولاء للأسرة المباشرة والتوحّد معها يكون هو الاقوى بالنسبة لكثير من الناس ، ولكن الوطنية وحب الوطن يتطلب ذلك بالاضافة الى الاتجاه نحو المصالح القومية... ان أعظم تضحية تفرضها الاوطان تتمثل فى أن على كل فرد ان يكون محبا للموت فى سبيل وطنه اذا ما دعاه » (٣٥)

ومن بين القضايا التى تمس موضوع الولاء والولاء للوطن بصفة خاصة ، قضية طرحت بعنوان « العقول المصرية المهاجرة » . فخلال شهرى سبتمبر وأكتوبر ١٩٨٠ طرح فاروق جويدة هذه القضية على صفحات جريدة الاهرام ، وناقشها عدد كبير من أبرز رجال الفكر فى مختلف التخصصات فى مصر . ونعرض هنا مقتطفات من بعض الآراء التى تناولتها - علّها توضح مختلف زوايا الرؤية لها .

وفى جانب من كانت « معارضته » لمبدأ الهجرة هى الارجح : قال د. **عبدالجواد سيد عبدالجواد** وهو أستاذ بالطاقة الذرية فى مقال له بعنوان « الظاهرة خطيرة » : « أصبحت الهجرة أو النزوح الى الخارج ظاهرة عامة ونمطاً من أنماط السلوك أو العلاقة بين علمائنا ومثقفينا وبين الوطن الأم ـ بل أكاد أقول أنها الفكرة التى ملكت علينا العقل والوجدان فزلزلت أمامها موقف الانتماء وحق الأرض والوطن ، وباتت تمثل طوق النجاة ورمز الخلاص من مشاكل اليوم... ان أبناء الوطن يعيشون بأجسادهم على ترابه بينما الفكر والوجدان يتطلع الى يوم النزوح سواء كان نزوحاً دائماً أو مؤقتاً» [١٥] .

وقال د. **لويس عوض** : «هناك مشكلة الولاء ، وهذه المشكلة لا يستهان بها ، وأنا أتحدث عن الذين يكتسبون جنسيات أخرى من بين المهاجرين... هؤلاء المهاجرون رغم أن عدداً كبيراً منهم من صفوة الناس ، عرفت أنهم يدخلون مصر بجواز سفر أجنبى رغم أن حكومتنا أتاحت لهم جوازات السفر المصرية وحصلوا عليها بالفعل ... كيف أستحل لنفسى أن أحمل جواز سفر مصرياً وأتمتع بجنسية مصرية ، ومع ذلك ، أدخل مصر فى حماية دولة أجنبية» [٢١] .

وفى جانب من كانت «موافقته» على مبدأ الهجرة هى الأرجح : قال **محمد زكى عبدالقادر** فى مقال له بعنوان «الظاهرة ليست خطيرة» : «الظاهرة طبيعية وصحية ، فانتقال السكان أفراداً أو جماعات من مكان الى آخر معهود وواقع منذ أقدم العصور ... ان المهاجر يمكن أن يحول المكان الذى هاجر اليه الى وطن ثان لأبناء وطنه ... ان الهجرة فى جوهرها ليست الا ايجاد التوازن بين العرض والطلب ، وهو قانون طبيعى ولا سبيل الى تغيير ه بالقانون والارغام» [٢٢] .

وقال د. **محمد فكرى عبدالفتاح** استاذ التاريخ بجامعة واشنطن فى مقال له

بعنوان «الهجرة بين الحقوق والواجبات» : «من حق الانسان المشروع أن يلتمس الرزق ويتنفس نسيم الحرية حيثما يشاء اذا ما ضاقت عليه سبل العيش أو تعذر عليه أن يشارك كمواطن مسئول فى التعبير عن رأيه والعمل على رفعة وطنه بالصورة التى ترضى ضميره واحساسه بالمسئولية ... فما من شك أن بمصر عقولا تضاهى بل وتتفوق على العقول المهاجرة ، ولكن ظروف البحث العلمى المتعسرة كانت تجعل منهم عقولاً حبيسةً ، فالعلم منهاج ، ومن الجهل بالعلم أن يتصور المرء أن العلم مبنى على عبقرية الفرد ... وخير وسيلة يمكن أن يستفيد الوطن بها هى جعل هؤلاء العلماء حلقة اتصال بين المجتمع العلمى المصرى والمجتمع العلمى الخارجى ... فالعمل للوطن ليس مرتبطاً بالالتصاق الجسدى بتربة مصر» [٢٦] .

أما نجيب **محفوظ** [*] فلعله وقف موقفا وسطاً بين المعارضة والموافقة فى تلك القضية الهامة .

ففى مقال له بعنوان «الهجرة بين الدعاية والولاء» قال : «من حق الانسان أن يهاجر اذا لم تتوافر له أسباب الحياة فى وطنه ، أو اذا لم توجد حاجة اليه ، هذه حقيقة لا خلاف عليها ، غير أن الخلاف ينشأ بالفعل حين نقرن الهجرة بالدول النامية كبلادنا،

فالحاجة لدينا هنا الى العلم والعلماء فوق أية حقيقة فهو بمثابة حياة أو موت . ومن هنا ، فان لهجرة أى عالم من البلاد النامية ومنها بلادنا ، أهمية قصوى وأيضا خسارة لا تعوض ، اذ أنه مطالب لا أقول بالتضحية بل بالمعيشة المعقولة اذا قيست بالمستوى العام ، حتى لا يحرم وطنه من علمه وجهده ، نقول اذا توافر له قدر معقول من الحياة ، فهو مطالب بالاقامة فى بلده... ولكن للقضية وجه آخر ، فانه يمكن أن تقصر البلاد عن تهيئة جو البحث العلمى لأحد أولئك العلماء ، فحينئذ ينتهى الامر الى هجرتها الى الخارج ، وهنا لا نستطيع لومه... ثمة أمر لابد من الاشارة اليه ، إذ لا

* أول أديب فى مصر والوطن العربى ينال جائزة نوبل فى الآداب وذلك فى عام ١٩٨٨ .

يهمنى بأية حال أن يكون المصرى فى الخارج كما يصور البعض سفيراً كبيراً أو صاحب دعاية ضخمة لمصر ، كل ما يهمنى هنا هو أن يقوم بعمل جاد وفعال لبلاده فى الداخل اذا كانت فى حاجة ماسة لمثل هذا العمل فى مثل هذه الظروف» [٢٧] .

هذه القضية التى عُنيت أساسا بهجرة العلماء وارتباطها بولائهم لوطنهم الأم ، تبرز لنا بالتداعى بعض التساؤلات الهامة فى موضوع الولاء ككل والولاء للوطن بصفة خاصة . فالعالِم ما هو إلا إنسان امتلك سلعة عالمية رائجة هى العلم ، وبها توفرت له امكانية الانتماء إلى أكثر من دولة غير دولته التى نشأ على أرضها ، ومن هنا سعى كثير من العلماء لسبب أو لآخر إلى هجرة وطنهم فتجسّدت بذلك مشكلة الولاء فى صورتها الاجتماعية الملحّة .

ومايزيد من خطورة المشكلة أن العالِم بعلمه يحتل موقع ريادة فى مجتمعه ، وهو غالبا ما يعمل أستاذا جامعيا أو فى أحد مراكز البحث العلمى المتميزة ، وقد يكون له مؤلفاته ومقالاته التى تنشر من خلال وسائل الاعلام . إنه من صفوة مجتمعه . إنه نموذج قيادى . إنه الأسوة التى يتأسّى بها كثير من طلبته ومريديه . فإذا كانت المناقشات التى تناولت قضية هجرة العلماء قد تعارضت فيما بينها وأضفت ظلال الشك حول ولاء العالم المهاجر نحو وطنه ، فنكون إذن أمام قدوة لانطمئن إلى سلامتها وإلى آثارها التى ستنتقل بدرجة أو بأخرى إلى أتباعها .

والسؤال الذى يفرض نفسه هنا : ماحال الولاء لدى المواطن العادى الذى لايستطيع الهجرة إذا ماتعرّض لسبب أو أكثر من الأسباب التى تدفع كثيرا من العلماء إلى هجرة أوطانهم - مثل المعاناة من مشاكل الاسكان أو ارتفاع الاسعار أو الزحام وكل مايترتب عليها ؟ . هل يكون ولاؤه حينئذ على مضض ؟ ولاء الضعيف قليل الحيلة ؟ وماذا يكون إذن حال عطائه لوطنه كما وكيفا ؟ إن المشكلة من هذا المنظور تصير أخطر وأضخم !

* * * * * * *

لقد بث الله العليم القدير في كلمات اللغة العربية ثراءً خاصاً جعلها أهلًا لان يصوغ بها قرآنه المجيد . وقد وضح لنا ان كلمة « ولاء » تشير في نفس الوقت الى طبيعة العلاقة المتبادلة بين التابع والمتبوع . بل ان لفظ « مولى » يمكن استخدامه للدلالة على التابع أو المتبوع ، وسياق المعنى هو الذى يوضح قصده لأيهما من خلال ابرازه لحق الطاعة أو لحق الرعاية .

واذا كان ذلك كذلك .. فان الفهم الواضح والشامل للفظ « ولاء » كما في العربية كفيل بالاجابة على جميع التساؤلات التى تتداعى بشأنه بفعل مشكلات حياتنا الاجتماعية وعلاقاتها المتشابكة . علينا إذن أن نحلل هذه الكلمة الجامعة « ولاء » ونكتشف معانيها المكنونة على أعماق مختلفة .. بارشاد من القرآن الكريم ولغته الثرية .

نتذكر أن أول ماصادفناه فى تحليلنا ان الولاء يعنى : المحبة والنصرة . فاذا ماتعمقنا اكثر فى هذين المعنيين اكتشفنا انهما شعور (محبة) وفعل (نصرة) ، أو قل عاطفة وعطاء بين طرفين . فمن يحب من ؟ ومن ينصر من ؟ لابد إذن من إنسان يتخذ موضوعاً مالولائه يحبه وينصره . هذا الموضوع قد يكون شخصا أو جماعة أو فكراً أو دينا . ولسنا بحاجة للاشارة الى أن تلك الموضوعات المجرّدة كالايديولوجيات والمبادىء والمُثل التى ندين لها بالولاء تتجسّد لنا فى أشخاص نتفاعل معهم ونتبادل معهم المحبة والنصرة ، فحب الرسول هو حب للاسلام ، ونصرة الاسلام فى نصرة الرسول .

وإذا ما وضعنا هذين المعنيين « المحبة والنصرة » تحت المجهر ، أعنى إذا ما تأملناهما من خلال منظار نفسى يظهر عمقا أكبر . فماذا سنجد ؟ نجد الانتماء .. والايثار . فالحب والمناصرة لابد ان يقوما على شعور بالانتماء ، كما أنهما يتطلبان عادة التضحية والايثار .

الانتمـــــاء

ذهب كثير من علماء النفس مثل ماسلو ، وفروم ، ومو راى (٢٨) الى أن الحاجة الى الانتماء هى حاجة انسانية اساسية وعامة فى بنى البشر ، هى أقرب الى الفطرة الموروثة فى كل انسان . ويرى ماسلو أن أى فرد فى حاجة لأن ينتمى الى شخص معين او الى تنظيم أو اطار اجتماعى محدد ، مثل العائلة أو الدولة ، يشعر فيه بالالفة والامان . ويقرر موراى أن « ميل الفرد الى الامتثال لقوانين مجتمعه انما يتضح جزئياً عن طريق تلك الحاجة العامة الى الانتماء والمشاركة فى جماعة عاملة » (٢٨) . ويقول فروم « إن فهم نفس الانسان لابد أن يبُنى على تحليل حاجات الانسان النابعة من ظروف وجوده » . وبالرغم من أن فروم قرر ان حاجات الانسان الاساسية هى خمس ، تأتى الحاجة الى الانتماء فى مقدمتها ، الا أننا نلحظ بسهولة أن ثلاث حاجات اخرى يمكن أن تندرج تحت فكرة الانتماء أو ترتبط بها ارتباطا كبيراً . فالحاجة الى الارتباط بالجذور ، والحاجة الى الهوّية ، والحاجة الى إطار توجيهى أو إطار مرجعى يستوحى منه الفرد طريقة ثابتة ومستقرة فى إدراك العالم وفهمه ، هذه الثلاث حاجات يمكن ان تندمج كلها أو تتحقق جميعها إذا ما أشبعت الحاجة الى الانتماء.أما الحاجة الخامسة عند فروم فهى حاجة الانسان الى السمو والتعالى فوق طبيعته الحيوانية كى يصبح شخصاً خلاقاً (٢٨) .

ان اعتقاد علماء النفس بأن الحاجة الى الانتماء هى حاجة أصيلة وفطرية فى الانسان [فطرة الله التى فطر الناس عليها] (الروم - ٣٠) نعّده من قبيل التداعيات السيكولوجية للانتماء الأول الأصيل فى نفس كل انسان لله الواحد جلّ شأنه خالق الخلق أجمعين . قال الله سبحانه وتعالى [وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين] (الاعراف - ١٧٢) . فإدراك الانسان بحقيقة وجود الله راسخ فى نفسه ، وليس عليه إذن وهو يدرك نقصه كمخلوق الا أن يتوجّه الى خالقه .. الى الكمال المطلق .

فى كتابه « الاسلام والعقل » قال الامام د . عبد الحليم محمود : « ما نزلت الاديان قط لاثبات وجود الله ، وإنما نزلت لتصحيح الاعتقاد فى الله أو لتصحيح طريق التوحيد . أما الآيات الكثيرة التى يظن بعض الناس انها نزلت لاثبات الوجود ، فليست من ذلك فى قليل ولا فى كثير ، انها تبين عظمة الله وجلاله وكبرياءه وهيمنته الكاملة على العالم » وقال : « وإذا تصفحت القرآن ، أو التوراة حتىٰ على وضعها الحالى ، أو الانجيل حتى فى وضعه الراهن ، فانك لا تجد أن مسألة وجود الله قد اتخذت فى أى سفر منها مكانة تجعلها هدفا من الاهداف الدينية ، أو احتلت مكانا يشعر بأنها من مقاصد الرسالة السماوية » (١٦) .

وعلى ذلك فالاستعداد للانتماء والحاجة اليه ، والشعور به ، خاصية أصيلة وفطرية فى نفس الانسان ولا تحتاج الى تعلّم ، الحاجة الى الانتماء موجودة فى داخل كل انسان . أما البيئة الخارجية والظروف التى يعايشها الفرد فهى التى تطرح له الموضوعات التى يمكن ان ينتمى اليها .

الايثار والغيرية فى مقابل الأنانية وعشق الذات

فى اللغة العربية .. الانانية تعنى « حب النفس المفرط مع عدم التفكير فى الغير » .. وهى ضد الغيرية التى هى « إيثار حب القريب ».ولا يختلف هذان المعنيان عما قال به رشتون إذ عرف الايثار بأنه « سلوك اجتماعى يهدف الى تحقيق نتائج ايجابية بالنسبة لآخر اكثر منها بالنسبة للذات » وعرف الانانية بأنها « على خلاف الايثار - سلوك اجتماعى يهدف الى تحقيق نتائج ايجابية بالنسبة للذات اكثر منها بالنسبة لآخر » (٣٧) . الا أن معنى الانانية فى العربية يوحى بالاضافة الى ذلك بنفس المعنى الذى جاء عن « النرجسية » فى نظرية التحليل النفسى وقولها بأنها تعنى « حب الذات أو عشق الذات » (٧) . كما يقول لاجاش عنها فى كتابه « المجمل فى التحليل النفسى » : « ويكون مجموع الاهتمام المستثمر فى الموضوعات وفى الأنا مقدارا ثابتا ، فكلما زاد حب المرء لذاته قلّت محبته للمضوعات والعكس بالعكس (٨) .

لنعرض هنا أفكار رشتون عن الدوافع النفسية للايثار ، اذ يرى أن خاصية « المشاركة الوجدانية » تعد دافعا هاما للايثار ، بمعنى أن الفرد اذا تواءم مع الحالة الانفعالية للاخر ، أن يفرح بسروره ويأسف لحزنه ، هذا التواؤم العاطفى يدفع الفرد عادة لأن يهتم بالاخر دون أن يفكّر كثيرا بما سيعود عليه من فائدة شخصية . كما يرى أن هناك ثلاثة دوافع اخرى للايثار تنبثق من نظام « المعايير » الذى يستشعره الفرد فى نفسه . ففى داخل كل منا معيار « للعدالة » ، ميزان يستخدمه لتقدير مدى تحقيق العدالة فى بيئته ، فاذا شعر باختلاله فانه يتحرك لاعادة توازنه .
كما أن هناك استجابة للشعور « بالمسئولية » ، فنجد الناس غالبا ما يميلون الى مساعدة من يعتمدون عليهم . كما نلحظ ايضا الحرص على « تبادل المعونة » ، فالناس سوف يساعدون من سبق أن تلقوا مساعدة منهم (٣٧) .

وبالرغم من التحديد الجيد للدوافع النفسية للايثار الذى قدمه **رشتون** ، الا انه يتوقف الى حد كبير على مواصفات البناء النفسى للفرد ، فهو يتوقف على سمة المشاركة الوجدانية والنظام الشخصى الداخلى للمعايير من جانب ، وعلى الموقف الخارجى والطرف المقابل الذى يتلقى تضحية الفرد من الجانب الآخر . فالايثار بحسب رؤية **رشتون** هو نتاج التفاعل بين كلا الجانبين ، بين الشخصية الايثارية والموقف أو الطرف الآخر الذى يستثير إيثاريتها وتضحياتها . أى أنه يلزم أن يتعلم الفرد الايثار أولا فى طفولته من خلال نظام التربية والتعليم حتى يصبح شخصا إيثارياً فيما بعد إبان فترة شبابه ونضجه ، وهذا مايفسّر عنوان كتابه « الايثار والتطبيع الاجتماعى والمجتمع » الذى عرض فيه رؤيته هذه .

إن التأكيد على أثر نظام التربية والتعليم والتطبيع الاجتماعى فى خلق الشخصية الايثارية هو تأكيد طيب ينبغى دراسته بحسب ظروف كل مجتمع حتى يؤتى ثماره المرجوة . ومع ذلك ، فالمسألة مازالت تحتاج الى مزيد من الشمول والعمق فى تناولها ، فأين نجد الكمال ؟

فى القرآن الكريم :

[للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلًا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون ، والذين تبوّءوا الدار والايمان من قبلهم يُحبون من هَاجَر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شحّ نفسه فأولئك هم المفلحون] (الحشر - ٨ ، ٩) .

فى الآيتين السابقتين .. نجد وصفا لحال المهاجرين من مكة الى المدينة

مضحّين بما يملكون من ديار وأموال فى سبيل نصرة الله ورسوله ، ووصفا لحال استقبال الانصار وهم أهل المدينة للمهاجرين اليهم من مكة ، انهم يحبون المهاجرين ، انهم يفضلونهم على أنفسهم ويعطونهم مما يملكون حتى ولو كانوا فى حاجة ماسة اليه ، لا تشوبهم أية مشاعر للانانية حتى مع الفقر والحاجة ، ولو كان بهم خصاصة .

لاشك أن الايثار الذى تشير إليه هاتان الآيتان أكثر رسوخا وأعلى قيمة ، إذ هو يستغرق الدوافع النفسية التى حددها رشتون ويزيد عليها . فلنا ان نعتقد ان « المشاركة الوجدانية » كانت متوفرة لدى الانصار بالنسبة للمهاجرين . هذه المشاركة الوجدانية ، لم تكتف بالشعور بمدى ارهاق المهاجرين نتيجة تخليهم عن أموالهم وممتلكاتهم فى سبيل الله ورسوله ، بل زادت عليه مشاعر الحب التى تخفف من الآمهم وخجلهم من السؤال . شاركوا فى استشعار الداء وزادوا بعطاء الدواء .

ولنا أن نعتقد ايضا أن الانصار قد توفر لديهم الدافع الثانى للايثار والذى يختص « بالمعايير الداخلية » كما حددها رشتون . فهم قد استشعروا « المسئولية » نحو المهاجرين بعد ان بايعوا الرسول - قبل الهجرة - على استقباله ومن معه من المؤمنين ونصرتهم فى المدينة ، كما أيقنوا أن ميزان « العدل » قد اختل حين اعتدى أهل الشرك فى مكة على المهاجرين وممتلكاتهم ، كما أن الاحساس بضرورة « تبادل المعونة » بين المهاجرين والانصار - فى ضوء المواقف السالفة بينهما وتوقعات المواقف القادمة التى ستجمعهما - لابد وأن يشكّل أحد الدوافع النفسية فى ذلك الموقف .

إن الايثار كما تحدثت عنه هاتان الآيتان لا ينطلق فقط من الدوافع النفسية التى

حددها رشتون والتى تقف على مستوى انسانى يقوم على الاحتمالية بغير تأكيد ، بل يتجاوزها الى دافع اكثر عمقا وثباتا يقوم على اليقين ، انه الدافع الدينى ، الايمان ، الاسلام .

والقول بأن الدافع الدينى يشكل احد الدوافع النفسية الهامة للسلوك قد قرره كثير من علماء النفس البارزين مثل يونج ، البورت ، اريكسون ، بل إنهم اعتبروا « الدين » حين يشكل المنطلق الاساسى لنظام القيم لدى الفرد مؤشراً هاماً للصحة النفسية ودليلًا بارزاً على نضج الشخصية . والايثار حين ينطلق من الدافع الدينى يكون اكثر قوة واستقراراً ، إذ انه لا يتأثر بتقلبات العواطف واختلافات النظر وظروف الادراك . فالانصار أعطوا المهاجرين وأحبوهم – ليس بسبب علاقات شخصية – ولكن بالوزاع الدينى الذى استقر فى نفوسهم أو استقرت نفوسهم عليه بعد الاسلام .

ومن هنا – اجتمعت هذه التضحيات الشخصية وتلك الايثارات الفردية لتشكل هذا العطاء الجماعى لذلك التلقّى الجماعى ، عطاء الأنصار وتلقى المهاجرين . ولقد كان العطاء غزيرا وكان التلقى عفيفا ، ...... كلاهما تسوده روح الاسلام ، الاسلام الذى أشاع الحب والجمال فى تلك العلاقة الايثارية ، ولو أصبح المعطى فيها هو المتلقى ، وأصبح المتلقى فيها هو المعطى ، ما تغير شكلها أو محتواها ، إذ أن المهاجر وهو المتلقى هنا قد اختبرت إيثاريته وتضحيته من قبل بتخليه عن ممتلكاته فى مكة . فالكل يسعى فى سبيل الله ويبتغى رضوان الله .

حين نقرأ قول الله تعالى [ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شحّ نفسه فأولئك هم المفلحون] نتبين بوضوح هذه المقابلة المباشرة بين

الايثار والأنانية،فالتضحية للغير حتى مع العوز والحاجة تقابلت ـ لتزيد الايضاح ولتؤكد الادراك ـ مع الشح الذى هو البخل ، والشحيح هو البخيل الذى يمسك ويمنع ، فشح النفس إذن هو تلك الأنانية البغيضة التى تسعى للحصول على المكاسب الشخصية دون اعتبار لحاجات الغير ومصالحه ، بل هى دائما تسعى لأخذ المزيد حتى وإن زاد عن الحاجة وتمنع العطاء حتى وإن كان لحاجة . حين تعرض الآية الكريمة إيثار الفقراء بجانب أنانية الاغنياء ، ندرك بوضوح أين الخير وأين ينبغى أن نقف حتى نكون من المفلحين . فمن يوق شح نفسه أى من يخلع عن نفسه تلك الانانية ، فأولئك هم المفلحون .

وقد لايعرف البعض أن كما للايثار مريديه ، فان للأنانية أيضا دعاتها ! ففى كتابه «المشكلة الخلقية» يقول د . زكريا ابراهيم : «القائلون بالانانية يزعمون أن ... الانانية هى المحرك الأول للسلوك البشرى كله ... أن الناس قد ولدوا أنانيين ولكنهم قد يحققون افعالاً « غيرية » حين يشعرون بأن فى البحث عن مصلحة الغير ضمانا لتحقيق مصالحهم الذاتية ... أما دعاة الغيرية أو الايثار فانهم يقولون على العكس من ذلك... ان الحياة الطبيعية للانسان حياة اجتماعية ، وبالتالى فان الرجل الذى لا ينشد سوى مصلحته الخاصة دون أن يهتم – فى كثير أو قليل – بمعاونة الآخرين او بتلقى العون من الآخرين لن يكون « إنسانا » بمعنى الكلمة » .

ويقرر د . زكريا ابراهيم موقفه بقوله : « أنه لا تعارض – بالضرورة – بين قطبى « الانانية » و « الغيرية » ... ان الغيرية المطلقة – مثلها فى ذلك كمثل الانانية المطلقة – لابد بالضرورة من أن تفضى الى التقليل او الانتقاص من « الخير العام » – كما لاحظ هربرت سبنسر بحق – وآية ذلك أننا لو تطلبنا من الفرد ان يضحى بذاته على كافة المستويات لكان فى هذه التضحية قضاء مبرما على شخصيته كلها .. ومعنى هذا انه لابد لكل فرد من أن يقيم ضربا من التوازن بين مطلب تحقيق الذات ومطلب التضحية بالذات » (٩) .

واذا كنا نوافق على ما انتهى اليه د . زكريا ابراهيم من حيث الشكل ، الا أننا نرى من حيث الجوهر ضرورة التأكيد على مفهومين : أما الاول فهو ان اقامة التوزان بين الانانية والغيرية لا ينبغى أن ينصرف معناه الى وجوب الحرص على تقسيم العائد أو المنفعة بين « الذات » و « الغير » بحيث تصبح مستحقات الذات هدفا لها تحرص عليه . بل يجب أن يقام هذا التوازن دائما فى خدمة مبدأ « الغيرية » وأن يصبح أى عائد على الذات رصيدا مضافا لها كى تقوى أكثر ومن ثم تعمل اكثر من اجل « الغير » .

والمفهوم الثانى الذى نود ان نؤكد عليه هنا هو ان اقامة التوازن بين « الانا » و « الغير » لا ينبغى ان يكون – بصفة عامة – من اهداف الفرد ، إذ أنه سوف يتحقق تلقائيا – فى المجتمع الاخلاقى الذى تشيع فيه قيمة الغيرية والايثار – وذلك بفعل قانون الكل . فالنظرة الكلية لمثل هذا المجتمع الفاضل تكشف عن أن الآخرين لن يتركوا أو يتخلوا عن أى فرد يعمل من أجلهم – لن يتركوه حتى يفنى أو يضار ، اللهم الا لضرورة ، كما يحدث احيانا فى معركة حربية دفاعا عن الوطن ، ففى مثل هذا الموقف ، ومن خلال مبدأ الغيرية ، يكون كل فرد مستعدا لهذا الفداء . ويبقى للموقف الخاص تحديد فرد بعينه .

أى أن مبدأ الغيرية ، بشيوعه فى المجتمع ، يتكفل ذاتيا باقامة التفاعلات الكلية السليمة وبتحقيق التوازن المطلوب بين « الأخذ » للذات و « العطاء » للآخرين . الا ان الاخذ هنا سوف يكون أقرب الى « التلقى » ، أى تلقى عطاء الآخرين الذى سوف يكون بالضرورة وفيرا ومتنوعا ، ويكون دور الفرد حينئذ أن يختار من بين هذا العطاء الوفير المتنوع ، ليس ما يحقق له مكسبا اكثر حسب مبدأ الانانية ، ولكنه يختار ما يتفاعل به اكثر .. حتى ينتج اكثر .. حتى يعطى اكثر للآخرين .

وفى التاريخ الاسلامى امثلة كثيرة تبين كيف يكون المرء ايثاريا ، وكيف يقيم التوازن بين حاجاته الذاتية ورغبته فى التضحية من اجل الآخرين . ويطيب لنا ان نعرض هنا مثال « **عبد الرحمن بن عوف** » تطبيقا للافكار التى تقدمت حول الايثار ودوافعه النفسية والحوار بين الانانية والغيرية .

ومع شهرة هذا المثال ، الا ان تقديمه بأسلوب **طه حسين** – فيما نقتطفه من كتاب « المعذبون فى الارض » – يساعد على إحياء تلك الذكرى المحببة فى صورتها المعبرة ، واظهار ابعادها النفسية التى تناسب دراستنا الراهنة .

« كان عبد الرحمن بن عوف رحمه الله كثير المال عريض الثراء فى جاهليته ، وقد اسرع الى الاسلام حين ظهرت الدعوة اليه فيمن اسرع اليه من السابقين الاولين ، لم يبطره الغنى ولم يصرف الثراء قلبه عن الخير ، ولم يخف كما خاف الاغنياء المترفون من قريش ما كان الاسلام يدعو اليه من التسوية بين الاغنياء والفقراء وبين الاقوياء والضعفاء وبين الاحرار والعبيد ، وانما شرح الله صدره للاسلام ، فأقبل عليه مشغوفا به مضحيا فى سبيله بما جمع من مال وما ضم من ثروة وما اكتسب من سؤدد ، مستعدا لمشاركة اصحابه فى التعرض للاذى واحتمال المكروه ، ولم يتردد كما لم يتردد غيره من اصحابه حين اشتدت المحنة وثقلت الفتنة وعظم البلاء فى ان يفر بدينه الى حيث يأمن على رأيه وعقيدته وعبادته لربه ، تاركا وراءه ماله الكثير وثراءه العريض ومكانه الرفيع ، وقوما من أهله وذوى قرابته كان يحبهم اشد الحب ويعطف عليهم أرق العطف ويمنحهم صفو ما كان يفيض به قلبه من الرفق والبر والحنان ، فهاجر الى ارض الحبشة الهجرتين جميعا ، ثم هاجر الى المدينة حين اتخذها النبى صلى الله عليه وسلم للاسلام دارا ، فانتهى اليها وهو لا يملك الا قلبه الذكى وضميره النقى وأنفه الحمى وايمانه الذى ملأ نفسه ثقة ويقينا » .

«وقد آخى النبى صلى الله عليه وسلم بينه وبين رجل من أغنياء الانصار هو سعد بن الربيع الخزرجى رحمه الله ، فقال له سعد : انظر الى مالى وخذ نصفه ، ولى زوجتان أطلق لك ايتهما اعجب اليك فتتخذها لنفسك زوجا ! قال عبد الرحمن : بارك الله لك ، ولكن اذا اصبحت فدلّونى على سوقكم . فلما أصبح ذهب الى السوق فأنفق فيها وجه النهار ، ثم عاد وقد باع واشترى واكتسب مايقيم به الاود ... ولم تمض اعوام حتى كان عبد الرحمن بن عوف من أغنياء المدينة » .

«ولم يكن النبى صلى الله عليه وسلم يكره شيئا كما كان يكره اجتماع المال . ولم يكن يشفق على نفسه وعلى اصحابه من شىء كما كان يشفق على نفسه وعلى اصحابه من اجتماع المال وتضخم الثراء ، فنظر ذات يوم الى عبد الرحمن وقال له : « يابن عوف ، إنك من الاغنياء ، ولن تدخل الجنة الا زحفا ، فأقرض الله يطلق لك قدميك » قال عبد الرحمن ابن عوف : « وما الذى اقرض الله يارسول الله ؟ » قال : « تبدأ بما أمسيت فيه » قال : « أبكلّه أجمع يارسول الله ؟ قال : « نعم ! » . فخرج بن عوف وهو يهم بذلك فأرسل اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « ان جبريل قال : مر ابـن عوف فليضيّف الضيف ، وليطعم المسكين ، وليعط السائل ويبدأ بمن يعول ، فانه اذا فعل ذلك كان تزكية ماهو فيه .. » .

« ينهض عبد الرحمن اذن مصمما على أن يُمضى فى ماله أمر الله ورسوله ، ولكن النبى يرسل اليه ان الله ورسوله يرفقان به بعد أن امتحناه ومحصاه ، فيأمرانه بأن يضيّف الضيف ويطعم المسكن ويعطى السائل ويبدأ بأهله وعياله ، فان فعل فقد زكى نفسه تزكية وطهّر ماله تطهيراً » .

«حزم فى الامتحان حتى تستبين العزيمة الصادقة الماضية على الاذعان مهما يكن شاقا ، وعلى التضحية مهما تكن عزيزة ، وعلى الجهد مهما يكن ثقيلا ؛ فإذا استبانت العزيمة الجازمة وظهرت النية الصادقة فالله ورسوله يضعان عنهم بعض ما يحتملون من الثقل » .

ويقول طه حسين « هذا حديث قديم ، ولكن الأيام التى نعيش فيها تجعله جديدا كل الجدة ، وأنا أسوقه الى الذين أتيح لهم من الغنى والثراء مثل ما أتيح لعبد الرحمن أو أكثر مما أتيح لعبد الرحمن ... فلينظر أغنياؤنا الى ما حولهم من بؤس وشقاء ووباء وموت ، وليفكروا فى أن أموالهم عارية مردودة ، وفى أن الذين يقرضون الله قرضا حسنا يضاعف لهم قرضهم يوم القيامة ، وفى أن الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله قد بُشروا بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، ويقال لهم : هذا ما كنزتم لانفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » ! .

****

حين وضعنا مصطلح « الولاء » تحت الاختبار التحليلى تكشف لنا عدد من العناصر التى يتألف منها محتواه . فقد تبينا لأول وهلة « الحب » و « النصرة » ، ثم على مستوى أعمق ظهر لنا « الانتماء » و « الايثار » ، ووجدنا لهما عددا من الدوافع كان أعمقها « الدافع الدينى » . والتساؤل الذى يطرح نفسه ونحن نمارس هذا التحليل : أين الفكر ؟ أين المعرفة والادراك فى نسيج الولاء ؟ أين ذلك الجانب الذى تنسجه المعلومات التى يتلقاها الفرد من بيئته : من الأسرة ، من المدرسة ، من الكتاب ، من أجهزة الاعلام ، وتؤثر حتما على ولائه سواء من حيث تكوينه أو من حيث اتجاهه وقوته ؟

نجد هذا العنصر المعرفي - والمعرفة هى إدراك العقل .. والذكاء أهم قدراته - نجده متضمنا فى مفهوم « النصرة » ، فالنصرة فعل ايجابى مقصود ، يستهدف دعم موضوع الولاء ورفعته وانتصاره ، ولا يُتصور أن يتم هذا الفعل الايجابى المقصود دون حد أدنى من المعرفة والمعلومات التى تترسب فى عقل الفرد حول من يواليه . فالولاء لله يقتضى معرفته سبحانه والتفكير فى صفاته وقدرته ، ولقد أشار العقاد فى كتابه « التفكير فريضة اسلامية » الى أن « التفكير يوجب الاسلام ، وأن الاسلام يوجب التفكير »(١٣) .

واذا كانت البداهة تقتضى اقتران العمل من أجل المولى بقدر من المعرفة والمعلومات ، فمن صحة القول أيضا أن الادراك العقلى يشيع فى بقية عناصر الولاء التى تكشفت لنا : فى المحبة .. وفى الانتماء .. وفى الايثار ..وفى مقومات الدافع الدينى . وعلى سبيل المثال فإن كل محب يعرف عادة قدرا من المعلومات عن محبوبه ، يعرف قدرا من صفاته سواء أدركها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، فى مستوى الحس أو فى مستوى التجريد . وهكذا بالنسبة لبقية العناصر .

ان حديث الرسول عليه الصلاة والسلام « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من والده وولده والناس أجمعين » (رواه البخارى) نلحظ فيه بوضوح أن الايمان - أو الولاء لله - يقترن بحب رسول الله ، ولنا أن نستنبط ان محبة الرسول إبان حياته قد انبثقت فى قلوب صحابته من العلاقات الشخصية المباشرة التى تتضمن جانب المعرفة والمعلومات ، وجانب العاطفة والوجدان . اما محبة المؤمنين له بعد وفاته فهى تقوم أساسا على الجانب المتاح فقط اى ما يختص بالمعرفة والمعلومات . على أن الحديث المشهور للرسول صلى الله عليه وسلم « انما الأعمال بالنيات » يقرن بوضوح بين المعرفة والارادة والفعل . وفى كتابه « احياء علوم الدين » يقول الامام الغزالى « فالنية هى عبارة عن الارادة المتوسطة بين العلم السابق والعمل

اللاحق ، فيعلم الشيء .. فتنبعث إرادته .. ليعمل على وفق العلم وقوله »[1] . أي أن النية ، وهي القصد وعزم القلب ، لا تنبعث إلا بعد ان يستقبل الفرد قدرا من المعرفة والمعلومات ، ومن ثم يأتي فعله وعمله مصداقا لارادته وادراكاته السابقة .

يتوقف الايمان إذن على هذه العلاقة الدينامية التى تجمع بين : الادراك ، والعاطفة ، والفعل . أوَ ليس الايمان هو الولاء لله .. معرفة بالله .. ومحبة لله .. وعمل لله ؟ معرفة تولد المحبة .. وهما معا يدفعان الى العمل . ومحبة تستزيد من المعرفة .. وهما معا يستحثان على الفعل . بل ان الطفل ينشأ مسلما ويؤدى العبادات ويفعل كما يفعل المسلمون .. فيحب الاسلام .. فيسعى الى معرفة جوهر الايمان . فعل يولّد المحبة .. وهما معا يدفعان الى المعرفة .. هذا ما قصدناه بالعلاقة الدينامية بين هذه العناصر الثلاثة ، فكل عنصر - المعرفة أو العاطفة أو الفعل - يؤثر فى العنصرين الاخرين ويتأثر بهما ، وتشكل محصّلة هذا التفاعل المتبادل حالة الايمان وإن شئت قل تشكّل صيغة الولاء .

****

هل الولاء فطرى ينتقل بالوراثه ام مكتسب من البيئة المعاشة ؟ وهل يوجد الولاء فى اللاشعور كما نعى وجوده فى الشعور - وبتعبير آخر - هل يترسب الولاء فى أعماق العقل الباطن فيؤثر على سلوكنا دون وعى منا أو إرادة ؟

والاجابة « نعم » .. الولاء « فطرى » و « مكتسب » ، كما أنه « شعورى » و « لا شعورى » .. كيف ؟

إذا توقفنا مع فضيلة الشيخ متولى الشعراوى فى تفسيره اللغوى لكلمة « كفر »

بمعنى ستر وغطاء ، نتبين معه أن الأصل هو إدراك وجود الله كحقيقة يستشعرها كل فرد فى نفسه ، ثم تأتى عوامل البيئة وأهواء النفس المغرضة فتستر وتغطى هذه الحقيقة البديهية . على أنه إذا كان الولاء لله بصفة خاصة هو الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، فكذلك أيضا الولاء كاستعداد نفسى عام لدى البشر . فكل انسان فى حاجة الى ولاء . وقد يتجه بفطرته الى الله كما قد يتجه الى موضوعات مختلفة فى حياته . وهذه الموضوعات قد تتآلف داخل اطار الولاء لله أو قد تتعارض معه . أى أن ما يمكن أن نعدّه فطريا وموروثا فى مسألة الولاء هو الولاء كاستعداد أو كحاجة انسانية . وإحساس الفرد بحاجته الى الولاء يستثير تلقائيا توجهه الفطرى لخالقه سبحانه وتعالى . هذا هو الجزء الفطرى فى الولاء . إنه يشكل الأساس الذى تقام عليه بنية الولاء فى حياة الفرد وما تحتويه من موضوعات مختلفة تجذب وتستقطب ولاءه .

فاذا قلنا أن أساس الولاء فطرى بالضرورة ، نقول ايضا أن بنية الولاء مكتسبة بالضرورة ايضا ، وتخضع لارادة الفرد واختياره وظروفه التى يحياها . وهذا تقرير صحيح والا ما أرسلت الرسل وما بعث الانبياء ، ويؤكد هذا ، قول الله تعالى [واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على انفسهم الست بربكم قالوا بلى] [الاعراف - ١٧٢] ، وقوله تعالى [إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا] [المائدة - ٥٥] ، فالولاء [لله] فطرى ، اما الولاء [للرسول والذين آمنوا] فهو مكتسب ومتعلّم - فالرسول قد خلت من قبله رسلٌ آخرون . ولكل رسول أولياء وأعداء ، كما ان الذين آمنوا يتجددون ويكثرون ويختلفون عبر الازمان ، وحسبنا هنا حديث النبى محمد مشيرا الى الفطرة والاكتساب فى بنية الولاء : [مامن مولود الا ويولد على الفطرة ، فأبواه يهوّدانه ، وينصّرانه ، ويمجّسانه ...] [رواه مسلم]. والرسول انما بعث لكى يصحح عملية التربية والتعليم أو التطبيع الاجتماعى - بلغة علم النفس - حتى تنسجم مع الفطرة .

ومن ناحية اخرى - إننا نقبل من نظرية التحليل النفسى تقسيمها لعقل الانسان الى مستويين : الشعور [العقل الواعى] واللاشعور [العقل الباطن] - وتقريرها بأن سلوك الفرد عادة هو محصلة التفاعل بين الدوافع والخبرات التى يحتويها كل من الشعور واللاشعور . نقبل هذه المفاهيم - لانها كما نعتقد - تتوافق مع ماورد فى القرآن الكريم . ففى الآية [وان تجهر بالقول فانه يعلم السر واخفى] [طه - ٧] . اشارة واضحة لمستويات العقل . فالجهر بالقول ، وايضا السر ، يشيران الى مستوى الشعور أو الوعى . واذا كان الفرد يعى ما يقوله ويعى أيضا ما يسرُّه فى نفسه ، الا ان هناك ما هو [أخفى] من السر ، لا يعيه الفرد ولكن الله يعلمه ، فأين يختفى ذلك الذى هو أخفى من السر ؟ نقول - والله أعلم - أنه يسكن فى المستويات الاعمق من العقل ، فى اللاشعور الذى كشف عنه أو أكد عليه [فرويد] وصدق الله العظيم إذ قال [سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق] [فصلت - ٥٣] .

على أن عالم النفس السويسرى [يونج] - وقد كان مسيحيا متدينا - قد تقدم خطوة أكثر عمقا من [فرويد] حين عرض مفهومه عن [اللاشعور الجمعى] الذى يشترك فيه كل البشر ، وهو فى مستوى اعمق من [اللاشعور الشخصى]. ويرى يونج انه اذا كان اللاشعور الشخصى تختزن فيه الخبرات التى تمر بالفرد ، فان اللاشعور الجمعى تختزن فيه خبرات الجنس البشرى المتراكمة عبر الاجيال . ان حب الام مثلا لا نتعلمه عن طريق المثال ولكننا نرثه من الماضى عبر الاجيال عن طريق اللاشعور الجمعى . والحيوانات لا ترعى صغارها بدافع الضمير ولكن بتكرار نمط الأمومة الموروث فى اللاشعور الجمعى . وقد اطلق يونج على المكونات البنائية للاشعور الجمعى اسم [الانماط الاولية] والنمط الاولى شكل فكرى عام يتضمن قدرا كبيرا من العاطفة وقد اصبح جزءا من ارث الانسان بفعل تكرار خبراته وممارساته عبر الاجيال ومن ثم فقد ترك آثاره فى مخ الانسان واصبح عاما

بين افراد الجنس البشرى ، ومن الانماط الاولية التى ذكرها يونج [الله .. الشيطان .. الام .. الاب ..]، ويرى أنه بسببُ قوة اللاشعور الجمعى ، اذ هو يشكل الاساس الموروث للبناء الكلى للشخصية وعليه ينبنى الانا واللاشعور الشخصى وجميع المكتسبات الفردية الاخرى ، فان اى انحراف كبير عنه يسبب شذوذا وانحرافا فى النفس وفقدان الاحساس بالطمأنينة والسعادة (١٢) .

يمكن القول اذن - بحسب نظرية يونج فى علم النفس التحليلى - ان الولاء والولاء لله على وجه الخصوص له جذوره الفطرية التى تمتد فى اعماق اللاشعور الجمعى كنمط اولى ، واذا ما كان الفرد فى حياته يسير وفق فطرته ومن ثم كان ولاؤه لله وللرسول وللمؤمنين ، واكتسب المنهج الذى يعكس هذا الولاء الصحيح وطريقة الحياة التى تحققه كان فردا سعيدا راضيا مرْضيا ، قادرا على اجتياز المشكلات التى تعترضه والتواؤم الصحيح معها ، اذ أن فيه الشعور والوعى يتناغم وينسجم مع اللاشعور واللاوعى ، وما اكتسبه واختاره يتناغم وينسجم مع ما ورثه وما اراده الله له . اما اذا انحرف الفرد عن فطرته ، بتأثير من بيئة مضطربة ، أو بوسوسة شيطان أو بوازع من النفس الامارة بالسوء ، فانه حينئذ يتعلم ويختار ما يخالف الفطرة ، وهنا يحدث التعارض والصراع بين الشعور واللاشعور ، بين المكتسب والموروث ، واذا طال الصراع واحتد سقط فى المرض النفسى سواء المرض النفسى بمعناه فى الطب النفسى أو بمعنى الاثم والضلال .
[قل ان ضللت فانما اضل على نفسى] [سبأ - ٥٠] .

واذا كنا قد ابرزنا مع يونج الولاء اللاشعورى الموروث ، فاننا نبرز مع « اريكسون » الولاء اللاشعورى المكتسب ، فبرغم أن كلاهما لا شعورى يخرج عن دائرة وعى الفرد وارادته الا أن الاول فطرى موروث ، والثانى متعلم ومكتسب . فقد اشار اريكسون الى مصطلح [اللاشعورى الاجتماعى] قاصدا به تلك النظرة

العامة والقيم المستهدفة التى تميز ثقافة أو حضارة بعينها والتى تترسب فى لاشعور الفرد او فى عقله الباطن وتؤثر على سلوكه . ان الفرد وهو يحيى فى مجتمع معين وفى اطار ثقافة بذاتها يكتسب لا شعوريا القيم السائدة فى هذا المجتمع وفى تلك الثقافة . فاذا كانت الثقافة – على سبيل المثال – تُعلى من شأن السلطة الاجتماعية والولاء لها ، سواء تمثلت فى شيخ القبيلة أو فى حاكم الدولة ، فان الفرد يكتسب فى عقله اللا شعورى اعلاء لمثل هذا الولاء . واذا كانت الثقافة التى يعيشها الفرد تضع أولوية الولاء لنمط معين من الحياة أو لايديولوجية ما كالفردية أو الجماعية أو الديمقراطية ، فان الفرد يكتسب هذه الاولوية فى لاشعوره ، وتكون مؤثرة على اختياراته وطريقة حياته .

وكما افترضنا تواجد الولاء فى اللا شعور الجمعى الذى قال به يونج ، وافترضنا تواجده ايضا فى اللا شعور الاجتماعى حسب رؤية اريكسون ، فمن الاولى ان نفترض وجوده كذلك فى اللا شعور الشخصى مع نظرية فرويد . اما وجود الولاء فى المستوى الشعورى ، مستوى الوعى ، فذلك لا يحتاج الى برهان . فالفرد بوعيه وقصده يدرك ولاءاته نحو الموضوعات المختلفة ، ويعرف مقدار حبه لها ، والى أى مدى يذهب للتضحية فى سبيلها .

الولاء اذن مثله مثل نبات ، بذرته الاولى وجذوره العميقة تنبت فى باطن العقل الغائر ، فى اللاشعور الجمعى ، وهى بذرة طيبة من خلق الله سبحانه وتعالى [لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم] (التين – ٤) ، ثم تنمو صاعدة داخل العقل الباطن ، عبر اللاشعور الاجتماعى ، وهو من وضع وأثر الثقافة التى ينشأ فى اطارها الفرد ، ثم عبر اللاشعور الشخصى ، وهو انعكاس لظروف التنشئة والتربية داخل الأسرة أساسا ، حتى اذا ما ظهر النبات فوق السطح ، ودخل الولاء فى حيِّز الوعى والادراك ، وعاه الفرد وأدركه ، وهنا يتفاعل الولاء مع عامل هام ومؤثر هو «ارادة الفرد». فان

كانت ارادة خيِّرة ، وكان الولاء قد نما نموا صحيحا فى اطار مجتمع وأسرة سوية (اللاشعور الاجتماعى واللاشعور الشخصى) فان الولاء يزدهر ويثمر ثمارا طيبة . وان كان قد علق بالولاء بعض الشوائب الاجتماعية والاسرية ، فان الارادة الخيِّرة القوية كفيلة بأن تصحح المسار وتنقى الشوائب كى يزدهر الولاء ويثمر الثمار الطيبة . اما اذا كان الفرد ضالاً آثماً فسيتجه بولائه الى الضلالة والاثم [ليجزى الله كل نفسٍ ما كسبت] (ابراهيم - ٥١) .

تتعدد اذن العوامل التى تؤثر فى نشأة الولاء وسلامة اتجاهه ، فالبداية تكون مع خلق الانسان على الفطرة الحسنة [فتبارك الله أحسن الخالقين] (المؤمنون ـ ١٤) ، ثم تأتى مسئولية الاجيال المتعاقبة لبنى آدم وما تورثه فى أعماق العقل الباطن ، ثم يبرز أثر المجتمع الذى يعايشه الفرد ويكتسب منه القيم السائدة ، ومن المسلَّم به أن الاسرة وهى حلقة الاتصال الاولى بين المجتمع والفرد لها دورها الكبير فى عملية التطبيع والتربية . وبعد ميراث الاجداد وانعكاسات المجتمع وتفاعلات الاسرة يأتى دور الفرد الناضج وارادته ، ولا شك أن مسئولية الفرد نحو سلامة ولائه تكون يسيرة كلما كان رصيده فى بنية الولاء الذى اكتسبه صحيحا وطيبا ومنسجما مع فطرته الاولى .

وعلى ذلك فان الولاء فطرى ومكتسب ، كما انه شعورى ولا شعورى ، ويشترك المجتمع والاسرة والفرد فى مسئولية نموه نموا سويا قويا من اجل سلامتهم جميعا

****

الولاء ضرورة انسانية وحاجة أساسية

« لا يوجد انسان بدون ولاء . فالولاء يحرك الفرد ويستثيره ويجعل لحياته مغزى واتجاها وهدفا يوحِّد من أجلها نشاطاته . كما أن للولاء وظيفة اجتماعية ، فبالولاء – وبواسطة ارادة الانسان واستعداده للتعاون مع الآخرين مستثمرا طاقاته بصورة كاملة تجاوز دائرته الضيقة – أصبح من الممكن للمجتمعات المتباينة أن تنشأ وتستمر فى البقاء »(٢٩) .

للولاء اذن وظيفة وجودية فى حياة الفرد والمجتمع ، وكأننا هنا أمام مناظرة لدور الفكر فى الكوجيتو الديكارتى « أنا أفكر اذن أنا موجود » ، ومن ثم يمكن القول « أنا موال اذن أنا موجود » . واذا كان ديكارت قد عُنى أولا باثبات حالة الوجود ، الا أن الوجود فى ذاته لا يتحقق منفصلا عن غايته أو علة وجوده ، وهذا واضح بالنسبة للوجود الانسانى على وجه الخصوص ، وربما تكون هذه الضرورة ، ضرورة الارتباط بين الموجود وغاية وجوده ، هى التى دفعت ديكارت الى أن يتجه بتفكيره بالشك وبالوجود نحو اليقين .. الى خالق الوجود .. الى الله سبحانه وتعالى

على أننا نستطيع أيضا أن نتبين من القرآن الكريم فكرة أنه « لا يوجد انسان بدون ولاء » . فاذا كان الناس كافة ينقسمون الى مؤمنين وكافرين – ويندرج المشركون مع الكفار – فان [الله ولىُّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات] (البقرة – ٢٥٧) . فكأن كل انسان له ولاؤه ولا يوجد الا بولاء ، ويكون الوجود حسنا اذا حسن ولاؤه كما يكون الوجود سيئا اذا ساء ولاؤه .

فى كتابه « نظريات الشخصية » يقول هوجان : « ان المحور الرئيسى فى

الوجودية هو أن يكون للحياة معنى ، ومن الناحية التاريخية فقد تأكد أن الدين يمنح هذا المعنى » ، ويقول : « ان المعيار النهائى للصحة النفسية والذى قرره كل من البورت ، يونج ، ومكدوجال هو فى التوجه نحو هدف عام فى الحياة . وفى ذلك ذكر البورت : أن الاشخاص الاصحاء هم الذين يوجهون أنفسهم نحو أهداف يختارونها ، فكل شخص يحتاج الى شىء خاص يعيش من أجله .. الى هدف عام . ورأى يونج أن الانسان يحقق ذاته حينئذ »(٣٢) .

وطبقا لمفهوم يونج أنه « بالرغم من أن مشكلة ايجاد معنى للحياة تظل أساسية بالنسبة للانسان ، فان انسان العصر قد أصبح باغترابه بعيدا عن الحل المعهود (الدين) . وان كانت أسباب هذا الاغتراب متشابكة الا أنها ربما جاءت نتيجة العقلانية الضيقة والمضطربة التى تميز القرن العشرين وتتدعم بانتصارات العلم والتكنولوجيا . وحتى يمكن ايجاد طريقة جديدة للعثور على معنى لهذه الحياة فسيظل الانسان يعانى من الصراعات التى نراها بين الايديولوجيات المتنافسة مثلما يحدث بين الشيوعية والرأسمالية »(٣٢) .

فاذا اتفق على أن كل انسان يحتاج الى توجُه عام يعيش من أجله ، توجُه يعطى لحياته معنى وقيمة ، أفلا يكون هذا التوجه العام هو الولاء ؟، الولاء لوطن أو لشخص أو لمبدأ أو لدين ، الولاء الذى هو المحبة والنصرة ، محبة تسكن القلب ونصرة تستثير العقل وتدعوه للتفُكير فى برنامج حياة ، وكلاهما يحرك الفرد كى يفعل ، فيرى ذاته محققةً فى أفعاله . هذا المزيج من الحب والفكر والعمل يصنع مرآة تعكس المعنى الذى يتمناه الفرد لحياته ، المعنى الذى هو روح كيانه وبه يتحقق وجوده الانسانى . بدون الولاء يكون الفرد أقل شأنا من جماد موجود فى ذاته ، وبالولاء يسمو الفرد ليكون انساناً موجوداً لاجل ذاته .

ومن الناحية النفسية لا يوجد فرق كبير بين شخص يكرس حياته للولاء للاسلام لاعلاء رايته الموحدة (الولاء نحو ...) وشخص يكرس حياته لمعاداة الشيوعية لتنكيس أعلامها المختلفة (الولاء ضد ...) ، لأن الولاء دائما ملازما للوجود وضرورة له ، الا أن الفرق بين هذين الشخصين أن ولاء الاول ولاء ايجابى – ولاء مع – أما الثانى فولاؤه سلبى – ولاء ضد – أى أن كلاهما يمارس حياته بدافع الولاء الا أن أحدهما يختلف عن الآخر فى اتجاهه .

وعلى ذلك فليست هناك نقطة حيادية يكون الفرد فيها بلا ولاء لأى موضوع ، والا كان وجوده فارغاً من أى معنى ، ولكنه دائما يكون مع هذا أو ذاك ، أو ضد هذا أو ضد ذاك ، بل ان الولاء قد لا يخرج من حيز الذات الى الغير ، وحينئذ يكون الهم الاول والاخير هو المصالح الشخصية ، فالانانية فى أحط ممارساتها هى قمة الولاء للذات أو للانا .

****

كيف يتولّد الولاء ؟

كما يولد الانسان بإخصاب الذكر للأنثى ، وكما تسرى الكهرباء حين الاتصال الملائم بين القطبين ، هكذا الولاء .. ينبثق بالمضاهاة بين الفرد والبيئة .. بين البناء النفسى والموضوعات البيئية .. بين الحاجة السيكولوجية للولاء داخل الفرد والموضوع المناسب لاشباعها فى البيئة الخارجية . فالحاجة إلى الطعام - على سبيل المثال - مسألة تتعلق بداخل الفرد ، بينما يتواجد الطعام المرغوب فى البيئة الخارجية ، ويستلزم الأمر سلوكا ملائما حتى يصل الفرد إلى طلبه .

وما يجعل الولاء محورا رئيسيا لحياة الانسان ووجوده ، أنه فى جانبه السيكولوجى يعتبر حاجة مركبة تتضمن عدة حاجات أساسية للفرد ، ودافعا جامعا

يتألف من عدة دوافع عميقة فى الشخصية . كما أنه فى جانبه البيئى ، يمكن لموضوعات متنوعة ، معنوية ومادية ، أن تكون ملائمة لاشباع هذه الحاجة النفسية المركبة . هذا فضلا عن أن مناهج الوصول لهذه الموضوعات وطرق السلوك إليها تتيح بالضرورة برامج مختلفة ومتعددة . ومن هنا ، فإن هذا التعدد والتركيب فى الجانب السيكولوجى للولاء ، وفى الجانب البيئى له ، وفى طرق ونتائج التفاعل بينهما ، مايضمن استمرار الولاء كمنطلق للوجود الانسانى .. يمنحه جوهره ومعناه .

الولاء إذن ينبثق من التفاعل بين قطبين : أحدهما سيكولوجى والآخر بيئى والقطب السيكولوجى يتمثل فى الحاجة النفسية إلى الولاء ، وهى حاجة مركبة جامعة لعدد من الحاجات الأساسية فى مقدمتها الحاجات الفسيولوجية (الطعام) والحاجة الى الأمن [فليعبدوا ربّ هذا البيت ، الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف] (قريش - ٣ ، ٤).والقطب البيئى هو المقابل للقطب السيكولوجى فى الولاء ، وهو يتضمن أيضا شبكة من الموضوعات المتنوعة ، هى التى تستثير الفرد وتحركه نحو (أو ضد) أهداف معينة . وكما وضح لنا أن الولاء فى جانبه النفسى هو حاجة جامعة ، فهو كذلك ايضا فى جانبه البيئى يتمثل فى موضوع رئيسى جامع كهدف عام يتضمن أهدافا متعددة .

فالولاء لله تعالى يتضمن الولاء للإسلام وللرسول وللذين آمنوا ، والولاء للوطن يتضمن الولاء لأرضه ولشعبه ولحكومته ، وهكذا .

هذا التنوع فى الموضوعات البيئية يتيح بدائل متعددةلتحقيق الولاء . فإذا أصيب الفرد بالاحباط وخيبة الأمل من الموضوع المباشر الذى يتفاعل معه ويتوجه إليه ، فإنه يستطيع عمل نقلة إلى موضوع آخر بديل ، ونستحضر هنا هجرة الرسول عليه

الصلاة والسلام إلى المدينة المنورة بعد أن رأى شعب مكة المكرمة يهدده ويعوقه عن تحقيق رسالته التى تستقطب كل ولائه ، فقد قال عند مغادرته لمكة « والله إنك لخير أرض الله ، وأحب أرض الله إلى الله ، ولولا أن قومى أخرجونى منك ما خرجت » (رواه الترمذى) ، وبالرغم من هذه المحبة التى لم تنقطع نحو مكة ، وفى تحويل القبلة من القدس إلى مكة إشارة لهذا التعلق الوجدانى ، إلا أنه صلى الله عليه وسلم ظل مقيما بالمدينة المنورة حتى توفاه الله .. ولاءً بولاء .. لشعبها الذى بايعه وأحبه وناصره .

إن الموضوعات البيئية التى يمكن أن تستقطب ولاء الفرد متعددة وكثيرة ، منها ما هو عام مشترك بين كل البشر ، ومنها ما هو خاص ببيئة بذاتها أو مجتمع بعينه ، ومنها ما يتعلق بالفرد نفسه . ومن هذه الموضوعات على سبيل الايضاح :

« **أنا** » الفردومصالحه الشخصية ، « **الأسرة** » سواء كانت الاسرة المحدودة أو الممتدة حتى تشمل « **القبيلة** » ، « **الطبقة** » سواء كان التقسيم مهنيا كالعمال والفلاحين والموظفين ، أو كان اقتصاديا كالفقيرة والمتوسطة والغنية ، أو كان تعليميا .. الخ ، «الوطن» بمعنى الدولة التى ينتمى إليها الفرد والتى تتضمن بالطبع « **الحاكم** » و« **الحزب** » ، « **الأمة** » مثل الامة العربية أو الأمة الاسلامية ، « **الايديولوجية** » مثل الرأسمالية أو الماركسية أو الاشتراكية ، « **الدين** » مثل الإسلام أو المسيحية أو اليهودية ، « **العلمانية** » « **الانسانية** » « **الله** » .

وبداهة يمكن مضاعفة تلك الموضوعات المطروحة لاستقطاب الولاء ، فتعقد الحياة الاجتماعية بما فيها من تناقضات وصراعات يزيد من الموضوعات والبدائل والاختيارات . وعلى ذلك ينبغى - من أجل الدراسة والاستيعاب - اختزال هذه

الكثرة إلى عدد مناسب من الموضوعات الجامعة والتى يصلح طرحها لمختلف الأفراد فى مختلف المجتمعات . وعلى ذلك نرى من المناسب تحديد خمسة موضوعات محورية للولاء يمكن أن تتضمن بشكل عام تلك الموضوعات الفرعية التى تطرحها البيئات والثقافات المختلفة التى تستقطب ولاء الفرد بدرجة أو بأخرى ، وهى :

١ - الأنا : وتتضمن الحاجات الشخصية والمصالح الذاتية للفرد .. الأنانية .

٢ - الأسرة : وتتضمن الوالدين والأخوة والأقارب ، وتتسع حتى تشمل القبيلة فى المجتمعات القبلية .

٣ - الوطن : ونعنى به الدولة الوطن التى ينتمى إليها الفرد ، وتتضمن الحكومة والشعب والارض ، والطبقة والبيئة المحلية ، والعمل ، ونظام التعليم ، والاعلام .. الخ .

٤ - العائلة الدولية : مثل الأمة العربية ، الأمة الاسلامية ، الكتلة الغربية الكتلة الشرقية ، دول عدم الانحياز .. الخ .

٥ - العقيدة : وهى تشكل المستوى التجريدى المطلق وتتضمن الأديان ، والإنسانية كفكرة ، العلمانية ، الايديولوجيات والفلسفات المختلفة .. الخ .

وكما عرضنا ، فمن التفاعل بين البناء النفسى داخل الفرد .. بحاجاته الأساسية .. الفطرية والمكتسبة ، والبيئة الخارجية التى يعيش الفرد فى إطارها .. بموضوعاتها المطروحة .. المادية والمعنوية ، ينبثق الولاء ، الولاء للعقيدة .. الولاء للامة .. الولاء للوطن .. الولاء للأسرة .. الولاء للذات .. ولا نحسب أن توجد ولاءات أخرى غير هذه إلا أن تكون ولاءات فرعية يمكن أن تندرج ضمن أى منها حسب ما تقدم .

ويجدر الاشارة هنا إلى حقيقة الفروق الفردية ، فكل فرد يختلف عن الاخر فى شخصيته وبنائه النفسى . الفطرى والمكتسب [قل كلٌ يعمل على شاكلته] (الاسراء ـ ٨٤) . ويترتب على هذه الفروق الفردية بالضرورة فروق فى الولاء . فكما أن الناس درجات [ورفع بعضكم فوق بعض درجات] (الانعام ـ ١٦٥) فإن الولاء أيضا يكون درجات ، فحتى نفس الموضوع ـ الوطن مثلا ـ يلقى من مواطنيه درجات مختلفة من المحبة .. ودرجات مختلفة من التضحية .

****

الفصل الثانى

مدخل
لنظرية عامة للولاء

- الولاء لجشطلت
- وحده الولاء

مدخل لنظرية عامة للولاء

اجتهادنا الآن أن نقيم مدخلا لنظرية عامة للولاء تقوم على المبادئ الاسلامية .. وننتظم وفق نظرية الجشطلت .

نظرية الجشطلت

هى نظرية ألمانية الأصل ، وأقرب المعانى فى اللغة العربية لكلمة الجشطلت هى : الوحدة الكلية ، الصيغة ، الانتظام ، البنية ، البناء ، ولعلها تجمع كل هذه المعانى . وتسعى نظرية الجشطلت إلى دراسة الشئ وهو فى موضعه من الكيان الكلى . فالموضوع الذى تدرسه هو جزء من بناء أو انتظام اكبر يشتمل على اجزاء اخرى ، تؤثر فيه وتتأثر به . فلكى تتعرف على شخصية فرد أو على حال ولائه مثلا ينبغى أن تستبين تطوره وتفاعلاته مع أسرته ومجتمعه ككل .

ونظرية الجشطلت – كما يقول جييوم – نظرية فلسفية كما أنها تيار فى علم النفس . فهى تُدخل مفهوم الصيغة أو الوحدة الكلية فى تفسير العالم الفيزيائى كما تُدخله فى تفسير العالم البيولوجى والعالم العقلى . انها تقيم صلات القربى بين الوقائع التى تعتبرها التصورات التقليدية منعزلة عن بعضها البعض ، وتقيم على هذه الصلات فلسفة وحدانية .

إن القرآن الكريم يشير بوضوح إلى تلك الوحدانية التى يقوم عليها الكون كله فى قول الله تعالى : [تسبح له السماوات السبع والارض ومن فيهن ،وإن من شئ

إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم] (الاسراء - ٤٤) . كما أن أحد القوانين الأساسية فى نظرية الجشطلت وهو (قانون العضوية) الذى يعنى بالتأثير المتبادل بين أجزاء البناء الواحد والتفاعل فيما بينها ، يتقرر مباشرة فى قول الرسول عليه الصلاة والسلام : « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » (أخرجه البخارى ومسلم) . فإذا ماتوقفنا فى هذا الحديث الشريف عند مثال « الجسد » أدركنا أن الجسد هنا (جشطلت) أو وحدة كلية تنقسم فى داخلها الى أعضاء متعددة ، كل عضو منها يختلف فى دوره عن ادوار الاخرين ، الا ان الجسد ككل يحيى فى أكمل صيغة له فى حالة تحقيق التكامل والتناغم بينها جميعا . ومن ناحية اخرى فان كل عضو تختلف درجة أهميته عن الاعضاء الاخرى بالنسبة لحياة الجسد واستمراريته ، فالقلب يفوق الذراع أهميةً بشكل عام . كما أن أهمية نفس العضو تختلف من موقف لاخر ، فالعين مثلا تبرز أهميتها فى ملاحظة مباراة فى كرة القدم ، وتقل فى الحفل الموسيقى ، وتتوارى فى حالة النوم .

على أننا يمكن أن نتبين أن الجسد ككل ، بالرغم من أنه يستمد وجوده من وجود اعضائه الفرعية ، الا ان له وجوده المستقل وشخصيته الفريدة (قانون الكل فى نظرية الجشطلت) ، هذه الشخصية ليست هى مجموع شخصيات أو صفات الاعضاء ولكنها تنبثق متميزة بمجرد اجتماع هذه الاعضاء فى نظام معين ، بل ان وجودها يسبق وجودهم ، والدليل على ذلك انك تدرك شخصا معينا على أنه فلان قبل ادراكك لصفات اعضاء جسمه ، ولربما لو سئلت عن لون عينيه أو شكل ملابسه لصعبت عليك الاجابة . أى ان الصيغة الكلية تفرض وجودها قبل وجود مكوناتها . ومثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد ، هذا الجسد المؤمن يعكس مغزى وجوده العام : «الايمان » .. ندركه قبل رؤية المؤمنين انفسهم .. نستشعره قبل ابصار المؤمنين بذواتهم .

ان المقام هنا لايتحمل الاطالة فى عرض قوانين الجشطلت ، ولكننا آثرنا أن نعرض النظرية بشكل عام ، فنتبين انها بدراستها لمفهوم الوحدة الكلية انما تستمد معظم مبادئها من التفكير الاسلامى ! سواء قصد إلى ذلك علماء الجشطلت أم لم يقصدوا . فمن شاء ان يحدد الاساس العلمى والفلسفى الذى نركن اليه فى دراستنا هذه عرف انه نظرية الجشطلت ، ومن شاء ان يحدد إنتماءنا العقائدى والمعرفى فى رؤيتنا هذه لبنية الولاء عرف أنه للدين بوجه عام ، وللاسلام بوجه خاص .

****

الـولاء جشـطلت

نعتقد ان الولاء وحدة كلية ، جشطلت ، تنقسم فى داخلها الى اعضاء فرعية او الى ولاءات جزئية ، كل منها يؤثر ويتأثر بالآخرين ، ومع ذلك فغالبا ما يكون لأحد تلك الولاءات الفرعية الغلبة فى التأثير العام والهيمنة على الجشطلت ككل ، فيصبغ الجميع بصبغته ويفرض عليهم وجوده ومتطلباته .

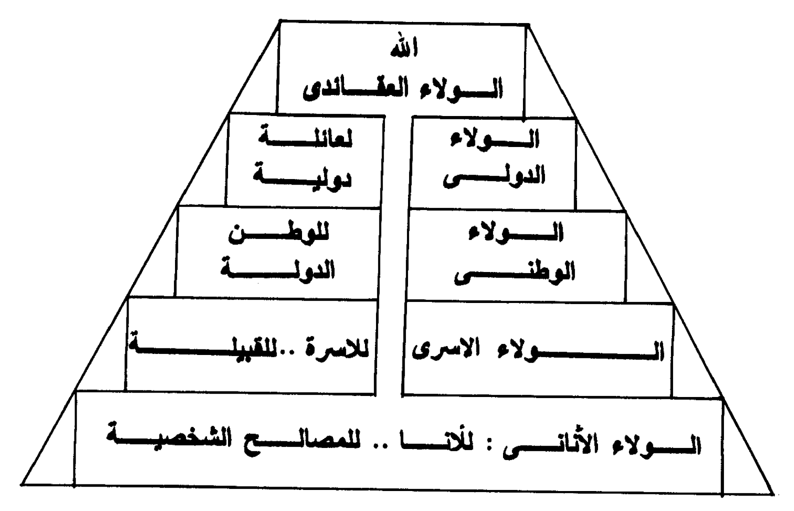
واذا كان الولاء ككل ينبثق من التفاعل بين بنية نفسية داخل الفرد وبنية بيئية خارجه ، واذا كان من الأيسر لنا التعرف على ملامح البنية البيئية وموضوعاتها ، الا ان هذه البنية البيئية للولاء تعكس نفس الانتظام الذى عليه البنية النفسية له ، فكلاهما صورة للاخر ، فما هو فى الداخل هو فى الخارج بحسب قوانين الجشطلت . فالفرد المؤمن بالله وحده يأتى سلوكه الظاهر انعكاسا لفطرته السليمة وتحقيقا لمعتقداته ، فالايمان هو هو ما وقر فى القلب وصدّقه العمل .

وعلى سبيل المثال يمكن أن نميز بين نظام البناء النفسى لفرد يعبد الله طمعا فى الجنة ، وآخر يعبد الله خوفا من جهنم ، وثالث يعبد الله حبا فى ذاته سبحانه وتعالى . فبالرغم من صلاحية العبادة وحسنها للافراد الثلاثة ، الا ان طريقة

العبادة بل طريقة ممارسة الحياة كلها تختلف فيما بينهم باختلاف طريقة انتظام البناء النفسى داخل كل فرد . وهكذا بالنسبة للولاء ، فسلوكيات الولاء التى يمارسها الفرد نحو الموضوعات المختلفة فى البيئة ، من حب ونصرة وفداء ، للاسرة أو للدولة أو للعقيدة ، أولوية لهذه وتأخير لتلك ، هذا الانتظام المعين للسلوك الولائى الواضح انما يعكس نفس الانتظام للبنية النفسية الباطنية للولاء .

نرى أن الولاء جشطلت ، بناء موحد ينتظم فى شكل هرمى يتألف من خمس درجات متصاعدة ، الولاء للذات أو الانا (الأنانية) فى قاعدة هذا الهرم ، يعلوه الولاء للاسرة ، ويتسع مفهوم الاسرة ليتضمن القبيلة كما تتمثل فى المجتمعات القبلية ، ويأتى الولاء للوطن فى الدرجة الوسطى للهرم ، والوطن هنا بمعنى الدولة الوطن كما تتجسد فى عصرنا الحديث ، بأرضها وشعبها وحكومتها ، ويعلوه الولاء لعائلة دولية ، والواقع الدولى يطرح عائلات دولية متباينة مثل جامعة الدولة العربية ، ومنظمة مؤتمر الدول الاسلامية ، والكتلة الغربية ، والكتلة الشرقية ، ويكون الولاء للعقيدة على قمة الهرم . واذا شئنا التعميم حتى تتواءم هذه الرؤية النظرية لبنية الولاء مع الافراد على اختلاف أديانهم وعقائدهم وجنسياتهم ، قلنا أن هذا المستوى العلوى هو مستوى التجريد والمطلق ، بمعنى أن يتضمن فكرة الدين على اطلاقه وفكرة الايديولوجية على تنوعها وفكرة الانسانية على شيوعها ، وهكذا ، الا ان الولاء لله – وهو مانقصده بوجه خاص – يظل هو الأعلى المهيمن .

والشكل التالى يوضح جشطلت الولاء – كما نراه – بعناصره الرئيسية وموضوعاته البيئية :



« جشـطلت الـولاء »

إن الدرجات الخمس فى الشكل السابق توضح النظام المتصاعد لجشطلت الولاء ، كما أن الخطين المائلين على يمين ويسار الشكل قُصد بهما تأكيد وحدة الولاء برغم انقسامه الى ولاءات نوعية ، كما قصد بهما أيضا تأكيد أن المستوى الأعلى - الولاء لله - يتضمن فى نفس الوقت جميع الولاءات الأدنـى ، ولايتعارض مع أى منها فى حالة ما يكون الولاء صادقا وصحيحا - كما سيتضح بعد . كما أن قناة الاتصال الرأسية التى تنصّف الهرم تشير الى الارتباط المباشر بين الفرد فى قاعدة الهرم (وما فوقه) وبين ربّه فى علوه سبحانه وتعالى ، وان الموضوعات الوسطى لاتمنع هذا الاتصال المباشر .

ونعرض فيما يلى تباعا المفاهيم التى تبرز الملامح الاساسية لكل من هذه الولاءات النوعية الخمسة التى ينبثق عنها جشطلت الولاء وتؤلف جميعا وحدته الكلية .

أولا ـ الولاء الأنانى :

يتأرجح الفرد اقترابا وابتعادا بين قطبين : الأنانية فى مقابل الغيرية ، وعلى قدر اقترابه من أحدهما وابتعاده عن الاخر يكون حال ولائه ، سلبا او ايجابا . فالأنانية هى حب الأنا أو عشق الذات وإعلاء المصالح الشخصية فوق أى اعتبار آخر ، والغيرية هى حب الغير وتقديم حاجاته على حاجات الأنا ، هما الشحّ فى مقابل الإيثار كما أشار القرآن . ونلحظ على جشطلت الولاء الذى عرضنا ، ان الفرد كلما صعد على درجاته -- انسلخ منه قدر من الأنانية وأضيف الى رصيد الغيرية ، وهذا ضرورى اذ انه يتسامى بوجدانه وبعمله الى مجالات أرحب وأوسع ، وكل مجال (الاسرة .. الوطن .. الخ) يتضمن بالضرورة الدرجات التى أدناه . هذا مع الأخذ فى الاعتبار أن الانانية من السمات المتأصّلة فى الانسان ، ويقول الرسول فى هذا المعنى : "لو كان لابن آدم وادٍ من مال لابتغى اليه ثانيا ، ولو كان له واديان لابتغى لهما ثالثا ، ولايملأ جوف ابن آدم الا التراب ، ويتوب الله على من تاب" (اخرجه الشيخان) .

إن الفرد كوجود فيزيقى له احتياجاته المادية ، وكواقع نفسى له حاجاته السيكولوجية ، وهما أول مايهتم الفرد باشباعه . ان الطفل الرضيع يبدأ بادراك جسده من خلال حركات يديه ورجليه فى الفراغ من حوله ، فيعى تميّزه وتفرده كجسد بعد أن كان يدرك ذاته كامتداد لجسد أمه ، ويعى انه يجب أن يسعى ويطلب الغذاء بعد ان كان يأتى اليه تلقائيا وهو فى رحم أمه . ومن هنا تصبح الأنا أو الذات موضوعا مستهدفا من قبل الفرد ويبدأ تمركزه حول ذاته ، تبدأ نرجسيته وأنانيته .

ولقد اشار اريكسون فى نظريته فى نمو الشخصية الى ان الفرد بصفة عامة يتصف بالانانية والأخذ والسلبية حتى بداية فترة المراهقة (أى فى المراحل الاربع الاولى للنمو : الثقة الاساسية ، والاستقلال ، والمبادرة ، المثابرة) ، ويتميز بالغيرية والعطاء والايجابية خلال المراحل التالية من النمو (الاربع مراحل التالية : الهوية ، الالفة ، الانتاج ، التكامل) (٢٣) . أى أن الذات تظل بشكل عام وبدرجات متفاوته موضوعا مستهدفا يتمركز حوله الفرد حتى بداية المراهقة ، على أن هذه الانانية لاتنتهى تماما فى مراحل النمو التالية ، بل إن هناك من عوامل التربية الاسرية الخاطئة مايعمل علي تثبيت هذا الاستقطاب للأنا بحيث يظل الفرد متمركزا حولها مستهدفا لمطالبها طوال حياته ومدركا للآخرين على أنهم وسائل لتحقيق مصالحه وخدمة أنانيته .

كما أن هناك فى البيئة الاجتماعية السياسية من العوامل مايساعد على تدعيم مبدأ الانانية وتثبيته فى نفوس المواطنين خاصة من هم فى سن الشباب ، كالاختناقات الاقتصادية وأزمات الغذاء والكساء والاسكان ، أو نظم التعليم التى تحكمها القيم السلبية كنظام التحصيل الدراسى الذى يقوم على الحفظ أى على التلقى أو الأخذ دون مشاركة فعالة أو منتجة من جانب الطالب ، أو عوامل القمع السياسى التى تمنع أية مشاركة حقيقية من قبل الجماهير وتشيع الخوف بينهم فيصير الهم الاول للفرد أن يحافظ على ذاته وأن يأخذ بقدر مايستطيع حتى لو كان بالكذب والتملق . مثل هذا القمع السياسى يستلب الناس رغبتهم وقدرتهم على العطاء فيركزون اهتمامهم على حماية انفسهم ، ويصبح الالتفات أولا للأنا بدلا من أن يكون للغير ، واذا بالكراهية ومشاعر العدوان التى لايستطيعون اظهارها لنظام الحكم الضاغط يتم ازاحتها وممارستها بين بعضهم البعض ، فتظهر الفتن الطائفية وتكثر حوادث الاعتداء . أما الحب الذى كان ينبغى للفرد أن يوجهه للغير اذا به يوجهه لنفسه ومن ثم تطفو الانانية ويعلو الولاء للذات .

ويبدو أن عوامل الأنانية تكمن فى الطابع العام للعصر الذى نعيش فيه ، وفى ذلك يقول د. زكى نجيب محمود : « اصبح شعور الفرد الواحد نحو نفسه يميل به الى ابتلاع العالم فى جوفه اذا استطاع وبمقدار مااستطاع ، ولعله شعور أوحى به الى انسان هذا العصر ، جبروت العلم والصناعة » (١٠) . وقد تكون المماثلة صحيحة اذا قلنا ان الايديولوجية الرأسمالية من جانب وهى تفتح أوسع الابواب امام الحرية الفردية ، وان الايديولوجية الشيوعية من الجانب الاخر وهى تضيق الخناق حول فكرة الفردية ، كلاهما نقيضان يعملان على التمركز حول الذات وشيوع الأنانية ، وإن كان سافرا فى الاولى ، مقنعا فى الثانية ، وأن الوسط ، والاسلام يدعو الى الوسطية ، هو الجماع الذى تتحقق فيه الفردية والجماعية معا .

كل هذه العوامل تشكل دائرة مغلقة ، مركزها تلك الذات الأنانية ، فالعوامل السلبية فى البيئة الاجتماعية السياسية تنتقل غالبا الى الاسرة ، وهى وحدة المجتمع ، والاسرة بدورها تنقلها الى أفرادها خلال عملية التنشئة ، وتشيع ثانية فى المجتمع بواسطة الافراد ، وتدور الدائرة .

واذا كانت العوامل الاجتماعية والتربوية تسهم اسهاما كبيرا فى جعل الأنا أو الذات موضوعا للولاء - للحب - فهى أيضا قد تجعلها موضوعاً لعدم الولاء - للكراهية - أى أنها قد تجعل الفرد يحب نفسه ويعليها أو يكره نفسه ويحقّرها - كيف ؟

فمن المعروف فى علم النفس أن « الأنا الاعلى » أو « الضمير » من صنع المجتمع . فانظر اذن شخصا يتصف بضمير مثالى صارم لا يغفر للأنا أقل الهفوات ، تجده كثيراً ما يكره نفسه بفعل مشاعر الاثم والندم التى تترسب فى نفسه من جراء

أخطائه ونزواته ورغباته المحرمة . أو انظر شخصا يعانى من مشاعر النقص والدونية والاحساس بالعجز والقصور الذى ترسب فى نفسه من تراكم اللوم والتحقير من والديه ومدرسيه أو من رؤسائه فى العمل ، تجده كثيرا ما يكره ذاته التى تخذله دوما . وفى كلا الحالين تصبح الأنا أو الذات موضوعا لعدم الولاء ، ويهبط عدم الولاء الى أدناه عندما يعمل الفرد على تدمير ذاته بالانتحار . أى أن الانا يمكن – بفعل البيئة الاجتماعية – أن تتدرج مكانتها الموضوعية ، بين أن تكون غايةً وهدفاً للعشق والحب والولاء من قبل الفرد ذاته ، وبين أن تكون غاية وهدفاً للكراهية والعدوان وعدم الولاء ، أو أن تتمتع بولاء الفرد ورضائه ولكنها تظل كوسيلة – وليست غاية – لتحقيق ولاءاته الاخرى للاخرين .

ثانيا – الولاء الاسرى :

الاسرة هى الموضوع الاجتماعى الاول الذى يستقطب ولاء الفرد أو عدم ولائه . ففى الطفولة المبكرة يدرك الطفل أمه كامتداد له ، وكأنه وهى جسداً واحداً ، وهو إدراك ينشأ مع أشهر الحمل فى الرحم ، ثم يبدأ وعى الطفل تدريجيا بأن أمه موضوع منفصل عنه يمنحه الغذاء والرعاية ، ومن هنا يُقدّر هل هى مصدر اشباع أو وسيلة حرمان ؟ هل تعطيه ما يكفيه أم تمنعه مما يريده ؟ هل يهبها ولاءه طواعية أم كرهاً ؟!

ومع نمو الطفل يتسع ادراكه لابيه ولاخوته ولاقاربه ، ولا شك أن حاجاته الفسيولوجية من غذاء وكساء ونظافة ، وحاجاته النفسية من حضن وتقبيل أو حب وتقدير ، فضلاً عن طرق اشباع هذه الحاجات ، هل تناسبه شكلا وتوقيتاً ؟ هل ينال غذاءه المناسب بالطريقة التى يحبها وفى الوقت الذى يرغبه وبالحنان الذى يؤنسه ؟ هل تقدم له اللعب الملائمة التى تثير اعجابه وهل يشترك معه الكبار فى العابه

ويتفاعلون معه بصدق وصداقة ؟، انه يشعر بصدق مشاعرهم ! انه يحس بحقيقة ابتساماتهم !، كل ذلك وغيره يشكل العامل الحاسم فى تحديد مكانة الاسرة فى وجدان الطفل ، هل تستحق ولاءه أم يعاقبها بعدم الولاء ؟، الا أن مكانة الاسرة سوف تتأثر أيضا عبر مراحل النمو التالية بفعل التعليم المدرسى ووسائل الاعلام المختلفة ، ويأتى التليفزيون فى مقدمتها .

واذا كان « فاقد الشيء لا يعطيه » ، فالاسرة لابد أن تتمتع بالحب والوفاق بين أفرادها ، وبالثقة فى النفس وفى الآخرين ، حتى تتمكن من اعطاء الطفل الحب والثقة فينشأ الولاء ، اما العدوان .. فينشأ نحو والدين يتبادلان الكراهية ، أما الخوف .. فينشأ مع أسرة تفتقر الى الثقة فى نفسها وفى المجتمع من حولها ، أما الأنانية .. فتنشأ مع أمثلة كل همّها أن تأخذ أكثر ما تستطيع وأن تعطى أقل ما يمكن ، أما الظلم .. فينشأ فى المناخ الذى يفرق فى العطاء عن غير حق وبغير تبرير عادل بين الولد والبنت وبين الكبير والصغير وبين الجميل والقبيح .

وكما أن الطفل كيان يعيش فى أسرة ، فان الاسرة كيان يعيش فى مجتمع . وحاجات الطفل من الاسرة هى ذاتها حاجات الاسرة من المجتمع . ومن ثم فان الاسرة ينبغى أن تحقق توافقها ، التوافق الداخلى بين أفرادها والتوافق الخارجى مع المجتمع ، حتى يتجسد ولاؤها ، فاذا ما وجد الولاء من الاسرة للمجتمع الذى تنتمى اليه يوجد الولاء فى الفرد الى الاسرة التى ينتمى اليها بل والى المجتمع الذى يعيش فى اطاره .

على أن الاسرة كيان راشد يحتوى على خبرات وتجارب وله القدرة على معرفة الخير والشر وعلى تجاوز سلبيات الماضى وعلى المواءمة المطلوبة مع الحاضر فى سبيل تحقيق مستقبل أفضل ، والطفل بطبيعته يفتقر الى مثل هذا الرشد ، ولذلك

فالاصلاح يبدأ فى الاسرة وبها ، حتى تكون نموذجا صالحا للولاء الحق الذى نريده لاطفالنا ولشبابنا . هذا التركيز على دور الاسرة لا ينبغى ان يصرفنا عن دور المجتمع فى كفالته للاسرة ، فالعلاقة وثيقة وجدلية بين الاسرة والنظام السياسى الاجتماعى السائد ، ومع ذلك فان الاسرة كوسيط بين الافراد والمجتمع تضطلع بالمهمة الرئيسية لهيمنة الحب والحق فى كلا الاتجاهين : الفرد والمجتمع . واذا كان ذلك كذلك فمن أين اذن تستلهم المبادىء والمناهج لتنفيذ هذه المهمة ؟
والاجابة واحدة .. فلتأخذ من الدين .. الذى أرسى المبادىء ووضع المناهج .
ولا شك أن الخطى تسير واحدة والايقاع يأتى منتظما والنغمة تنتشر حلوة اذا ما كان الكل - المجتمع والاسرة والفرد - يرسم حياته وُفق دينه .

ثالثا - الولاء الوطنى :

قبل سنى الدراسة تشكل الاسرة تقريبا كل عالم الطفل ، فحدود اداركه تكاد تنطبق على محيط اسرته ، يدرك أمه وأباه وأخوته ، ليسوا كمواطنين فى دولته ، ولكن كأعضاء أسرة واحدة . وبذهابه الى المدرسة تبدأ اكتشافاته للمجتمع الاوسع بعناصره المتنوعة ، ويُقَدَّم له الوطن برموزه البسيطة وبكلّيته غير المتمايزة ، فيُغنى نشيد بلاده ، ويحيّى علمها ، ويهتف « تحيا مصر » .

ويتمايز الوطن وينمو فى ادراك الطفل تدريجيا تبعا لمبادىء النضج التى ينمو وفقها أيضاً عقل الطفل وجسمه . فكما يتسلسل النمو فى رحم الأم من الرأس الى القدم أو من أعلى الى أسفل ، فكذلك يدرك الطفل أول ما يدركه من وطنه : العلَم والحاكم ، ثم تتبدّى له التفصيلات الأدنى . وكما يسير النمو من الداخل الى الخارج ، فان الطفل يبدأ ادراكه لوطنه أيضا من الداخل : من أسرته ، ثم يسير نحو الخارج فى دوائر تظل

تتسع من الجيران الى المدرسة الى الحى الى البلدة حتى تضم الوطن كله . ويتكفل نظام التعليم وتطوره والمواد الدراسية بما فيها من جغرافيا وتاريخ ببلورة مفهوم "الوطن" لدى الطفل ، فيصبح « الدولة الوطن » – جمهورية مصر العربية – التى تتمايز بذاتها وحدودها وتبرز بكيانها المستقل بين الدول الاخرى فى العالم . ويساعد على هذا التمايز دراسته للغات فيعرف أن اللغة العربية هى لغة العرب ، وأن اللغة الانجليزية هى لغة الانجليز ، وأن اللغة الفرنسية هى لغة الفرنسيين . وهكذا يتجسد الوطن فى عقل الطفل كموضوع يتجه اليه بمشاعره .

فى دراسة طريفة لا تخلو من دلالات هامة قام بها « هيس ، وتورنى » ، ورد أن طفلاً أمريكياً فى الصف الثانى الابتدائى ، حين سؤل عما اذا كان يفضل أن يكون رجلاً « انجليزيا » أم رجلا « أمريكيا » ، أجاب : « حسنا .. انى لا أرغب أن أكون رجلاً انجليزياً لأنى لا أحب أن أتكلم بطريقتهم ، انى أحب أن أكون أمريكيا ، لان فى أمريكا لعب أفضل ، وبنادق أفضل ، وسراير أفضل ، وأغطية أفضل ، وملابس أفضل ، ومحلات أفضل ، ومدارس ومدرسين أفضل »(٣٨) .

ان نتائج تلك الدراسة التى أجريت عام ١٩٦٧ على اثنى عشر ألف طفل أمريكى تشير الى أهمية إجراء دراسات نفسية على الطفل المصرى ، خاصة وقد أعلنت الدولة أن العقد الذى نبدأ الآن هو عقد الطفل ، وتشير كذلك الى أهمية جودة المنتجات الوطنية التى يستخدمها الطفل المصرى مع شعار « صنع فى مصر » ، هذا الطفل المصرى ينشأ مع الأسف فى بعض الأوساط وقد طُبع فى ذهنه أن كل منتج أجنبى هو عادة أرقى وأجمل من المنتج المصرى المماثل !. ان المسألة كما رأينا تمس مشاعر الولاء التى تتبلور بداءة من الطفولة .

واذا كان الجانب الانفعالى العاطفى هو الذى يسود الطفولة ، فمع النضج يبرز معه الجانب المعرفى العقلانى الذى تدعمه المدرسة ووسائل الاعلام ، ويتفاعل الجانبان : الانفعالى والمعرفى ، وتنتج المحصلة التى تختلف فى شكلها وفى قيمتها من فرد لآخر . فالطفل قد يرى أباه أقوى الآباء كما قد يرى وطنه أقوى الاوطان ، الا أنه مع النضج ونمو المعرفة واجراء المقارنات ، يكتشف تطرف تلك الرؤية المثالية مقتربا من الواقع النسبى ، ومع ذلك فلا يمنع أن يظل محبا لأبيه ومحبا لوطنه .

الحاكم .. الشعب .. الارض :

بعد أن يبرز الوطن كدولة على خريطة العالم تبدأ أجزاؤه الرئيسية والفرعية فى الظهور كموضوعات فى المجال السيكولوجى ، ويدرك الفرد أن وطنه هو دولة تتألف من : حاكم له حكومته ، وشعب له خصائصه ، وأرض لها حدودها . وكما أن هذه العناصر الثلاثة (الحاكم والشعب والارض) تشكل فى مجموعها « الدولة » ، فلا توجد دولة بغير أرض أو بغير شعب أو بغير حاكم أو حكومة ، فهى أيضا ترسم الاتجاهات الرئيسية للولاء للوطن ، ولا شك أن الولاء للوطن ككل (كجشطلت) يتضمن لزوماً الولاء للحاكم الشرعى والولاء للشعب والولاء للارض ، وانتقاص أى من هذه الولاءات الجزئية يؤثر بالضرورة على استقرار الولاء الكلى ووحدته .

على أننا ينبغى أن نؤكد هنا على أن هذه العناصر الثلاثة التى تشكل وحدة الدولة والولاء لها ليست متساوية من حيث الاهمية والدور والتأثير . وبالرغم من أن ظاهر هذا القول قد يرضى البعض الذى يردد أن عدم الولاء للحاكم لا يعنى عدم الولاء للوطن ، وبالرغم من أن عدم الاتفاق على طريقة الحكم مسألة ، والولاء للحاكم مسألة أخرى ، الا أن جوهر هذا القول يبقى ليؤكد ضرورة أن تتناغم هذه العناصر الثلاثة

فى أدوارها مع بعضها البعض حتى يتحقق الاتزان والاستقرار وتتحقق الوحدة المطلوبة للدولة وللولاء لها . فالارض يجب أن تتسع للشعب ، والشعب يجب أن يتكافأ مع الارض ، والحاكم يجب أن يُجسّد شخصية شعبه ، والحكومة يجب أن تنسجم مع خصائص الكل . ان أى عنصر منها اذا لم يحقق التوافق المطلوب مع الكل بالدرجة الكافية ، فان مبدأ الوحدة الوظيفية فى نظرية الجشطلت يقرر أنه لابد أن يتعدل ويتبدل بما يحقق اتزان الجشطلت أو الصيغة الكلية ، أو أن الجشطلت كله (الدولة هنا) سوف تتعدل وتتبدل بما يحقق الاستقرار المطلوب .

الحاكــــم :

يمكن النظر الى الحاكم الشرعى للدولة وامكاناته لاستقطاب ولاء الشعب على ثلاثة مستويات : الحاكم كمنصب عام ، والحاكم كأيديولوجية وكطريقة فى الحكم ، والحاكم كشخص له مقوماته الذاتية وقيمه الخاصة .

ففى ايديولوجية واحدة يمكن لحاكم معين أن يستقطب ولاءً أكثر بكثير من حاكم آخر ، رغم ادارتهما للحكم بنفس الطريقة تقريبا ، وهنا يظهر أثر جاذبية الحاكم الشخصية . من ناحية أخرى فقد يفتقر الحاكم لتلك الجاذبية الشخصية بل ان مواطناً ما قد لا يتقبله ، ومع ذلك نجد المواطن نفسه مطيعا له مناصرا اياه بحكم منصبه كحاكم ، بل نجد هذا المواطن يدافع عنه ضد أى نقد أو اتهام يوجه له من أحد الاجانب. هنا تبرز قداسة المنصب . ومن ناحية ثالثة فقد يكون للحاكم من المقومات الذاتية ومن صفات الزعامة ما يفرض بشخصيته ايديولوجية جديدة وطريقة مختلفة للحكم .

على أن هذه الثلاثة مستويات التى تؤثر فى حجم الولاء للحاكم ترتبط فيما بينها

فى كلية الحاكم نفسه ، ولا يمكن بوجه عام تحديد أيها أكثر أثراً وأكثر استقطاباً لولاء المواطن أو الجماعة أو الشعب كله . فقد تكون أيديولوجية ما راسخة فى شعب معين بحيث يصعب على أى حاكم الحكم إلا من خلالها . وقد تأتى الصدفة بشخص ضعيف الى الحكم ، ربما عن طريقة الوراثة ، ولا يكون له من سند سوى قداسة منصبه . على أنه يمكن القول إجمالا أن الحاكم يستقطب الولاء القوى إذا ماكان يجسّد آمال شعبه وأحلامه بما تحتويه من رموز وقيم ، ويجسّد بحق الصورة الذهنية للحاكم فى عقل الشعب ، سواء كانت صورة الفرعون أو الخليفة ، الملك أو الزعيم .

ان أعضاء الحكومة يشكلون موضوعات فرعية من الحاكم ، بل ان الجهاز الحكومى كله بما فيه من موظفين وبيروقراطية يعتبر شبكة موضوعات تتفرع من الحكومة والحاكم ، ومشاعر المواطنين نحو هذا الجهاز سوف تؤثر بالضرورة على مشاعرهم نحو الحاكم ، وكم من مواطن اتهم الحاكم بالفساد نتيجة خبرته السيئة مع أحد صغار الموظفين !. ولذلك ينبغى على الحاكم أن يحسن اختيار أعوانه ، وهنا نستحضر حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من ولى منكم عملاً فأراد الله به خيراً جعل له وزيراً صالحا ، ان نسى ذكّره وان ذكر أعانه » (أخرجه النسائى) ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « ما استُخلف خليفة الا له بطانتان ، بطانة تأمره بالخير وتحضّه عليه ، وبطانة تأمره بالشر وتحضّه عليه ، والمعصوم من عصم الله » (رواه البخارى) .

ولا شك أن الحاكم كأحد عناصر الدولة وأحد أركان الولاء لها ، اذا قورن بالعنصرين الاخرين : الشعب والارض ، يعتبر ثالثها من حيث المرتبة . حقيقة أن غيابه يهز كيان الدولة ، اذ لا توجد دولة بغير حاكم ، الا أن تغييره أو استبداله لا يؤثر على وجودها ، فالحاكم يتغير والشعب يستمر ولكن الارض هى الابقى .

ومع ذلك فان الحاكم كموضوع للولاء يتمتع بامكانات كبيرة وباحتمالات متعددة لتوليد شحنات انفعالية قوية نحوه ، ليست فقط لقداسة منصبه الذى يعتبر تضخيما لمنصب الأب فى الاسرة وكأنه أب لكل أفراد شعبه ، ولكن أيضا لأنه يسيطر عادة على كل أو بعض وسائل التأثير على الرأى العام ، سواء كانت وسائل اعلام أو أجهزة تأمين وحماية . كما أن ممارسته للحكم ، ونجاحه أو فشله فى اتخاذ قرارات مصيرية بالنسبة لبلده ، كل ذلك يعمل على ارتفاع رصيده من الشحنات الانفعالية ، سواء كانت شحنات موجبة تدعم الولاء والحب من شعبه ، أو كانت شحنات سالبة تحيله الى موضوع يستقطب الاتهام والعدوان . فعبدالناصر تَخلّى أو أُخلى عن الزعامة بهزيمة يونيه ١٩٦٧ ، والسادات ارتقى من الرئاسة الى الزعامة بانتصار اكتوبر ١٩٧٣ ، ومبارك يصير زعيما بتحقيق العبور الاقتصادى .

الشـــــعب :

ان شعب الدولة يشكل موضوعا رئيسيا لاستقطاب ولاء المواطن ، مثله مثل حاكم الدولة وحكومتها ، الا أنه عادة ما يتضمن قدرة أكبر على الاستقطاب بفضل استمراريته الاطول وبفضل اتاحته لعديد من الرموز والموضوعات والاشخاص الذين يتوحّد معهم الفرد ويستدمجهم فى بنائه النفسى فيصير الشعب جزءاً من كيانه يحبه كما يحب نفسه ويدافع عنه كما يدافع عن ذاته .

وبصفة عامة يمكن القول ان الشعب فى عقل الفرد يتم ادراكه على ثلاثة مستويات مترابطة :

المستوى التجريدى : وهو المستوى الأول – ويتمثل فيه مجموع الشعب بشكل معنوى، فمصطلح « شعب مصر » هو اصطلاح عام ليس فيه تمييز محدد ولكنه

يحدد انتماء عاماً ويشير الى عدة مقومات مشتركة بين المواطنين . ويلعب كل من التاريخ وأساليب التنشئة وطرق التربية والتطبيع الاجتماعى السياسى دوراً كبيراً فى الشحن الانفعالى لهذا المفهوم - مفهوم الشعب - بما يكسبه قدرة كبيرة على استقطاب ولاء الفرد .

المستوى الفئوى الطبقى : وهو المستوى الثانى - وفيه يتمايز الشعب فى عقل الفرد الى فئات أو طبقات : فلاحين، عمال ، موظفين ، عسكريين ، مدنيين ، مسلمين ، مسيحيين ، أغنياء ، فقراء ، أحزاب .. الخ ، ويتجه الموضوع (الشعب) الذى كان موحداً فى المستوى التجريدى الى الانقسام ، وتسهم عوامل الانتماء الطبقى والمصالح الشخصية ووسائل الاعلام المتنوعة فى شحن هذه الانقسامات بشحنات انفعالية متباينة بين الشدة والضعف وبين الايجاب والسلب بما يولد استقطابات لولاءات طبقية أو استقطابات لخصومات فئوية أو طائفية .

المستوى المعاش : وهو المستوى الثالث - الذى يحتك به الفرد ويتصل به اتصالاً مباشراً ، ويتمثل فى نسبة صغيرة من مجموع الشعب ، قد تكون جزءاً من المليون - أقل أو أكثر - هى التى يعايشها الفرد من الناحية الواقعية ابان دورة حياته . هذه النسبة الصغيرة لا تمثل غالبا مجموع الشعب تمثيلا حقيقيا ، اذ هى مرهونة بظروف الفرد . فنوعية وحجم الاتصالات الاجتماعية بالنسبة لفرد نشأ فلاحاً أمّياً تختلف بالتأكيد عنها بالنسبة لفرد صار عالما أو فنانا . هذه النسبة الضئيلة سوف تؤثر تأثيراً خطيراً وحاسماً فى معظم الاحيان على نظرة الفرد وتقديره العام لصفات ومقومات الشعب ككل . فبناءً على خبرته مع تلك العينة الصغيرة - التى لا تمثل مجموع الشعب - غالباً ما سيعمم أحكامه . وعلى سبيل المثال قد ينشأ فرد ما فى بيئة محدودة يشيع فيها التعصب الدينى ، فيعتقد أن التعصب الدينى سمة تميز الشعب كله ، ويكون فى تعميمه هذا ضالاً ومضللاً .

وتعد مجموعة العمل ، أى الاشخاص الذين يتعامل معهم الفرد فى موقع عمله فضلاً عن العمل ذاته ، من أهم العناصر التى يتضمنها هذا المستوى المعاش من مجموع الشعب . والعمل وكل ما يتعلق به يشكل على الأقل نصف حياة الفرد ، فان لم يحدث التوافق والرضا اللازمين فى مجال العمل اهتزت حياة الفرد كلها . وكم سمعنا عن أسباب الهجرة من الوطن ، وهجرة العقول المفكرة والعلماء على وجه الخصوص ، وكان سوء التوافق المهنى أو الوظيفى أبرز تلك الاسباب الطاردة ! .

فهؤلاء .. قد هاجروا من وطنهم لأنهم لم يجدوا العمل المناسب الذى يحقق ذواتهم ،
وهؤلاء .. هاجروا هروبا من مساوىء البيرقراطية وأسْر الروتين الوظيفى ،
وآخرون .. هاجروا هربا من ديكتاتورية مديرين معقدين أو من حسد زملاء حاقدين ،
وهكذا ، فانه اذا شعر أحد الموظفين بظلم رؤسائه له فغالباً ما يكرههم ويكره عمله كله ، وقد يشعر أن المجتمع كله يظلمه .. الشعب يظلمه .. الحكومة تظلمه .. الوطن يظلمه .. واذن فليستبدل له بوطن اخر .. فيهاجر .
والغريب أن المشكلة لا تحل . فهو قد يشعر فعلا بالرضاء الوظيفى فى المهجر الا أنه يكتشف أن وطنه مازال يسكن قلبه .. ويظل مذبذبا بين هذا وذاك ، جسده هناك وقلبه هنا .. وعقله حائر بين الاثنين .

كما أن المجموعات الاخرى من المجتمع التى يتصل بها الفرد لها آثارها المختلفة بحسب أهميتها له . فلا يجوز أن نغفل مثلا أثر الجيران والاصدقاء ، أو المدرسين ، أو أعضاء الحزب السياسى الذى ينتمى اليه ، أو الافراد الذين يؤدون له خدمات ادارية مختلفة . كل هؤلاء وغيرهم يسهمون فى تشكيل الصورة الذهنية للشعب فى عقل الفرد .

هذه المستويات الثلاث التى يتم ادراك «الشعب» من خلالها (المستويات :

التجريدى والطبقى والمعاش) تتفاعل مع بعضها البعض كى تطرح فى النهاية « الشعب » كموضوع للولاء أو كموضوع للعداوة ، وهى فيما بينها تختلف من حيث الاهمية والدور فى هذا التفاعل بحسب مقومات الشعب وسيكولوجية الفرد .

فعلى سبيل المثال – يفخر الشعب المصرى بتاريخه المجيد الذى تجسد فى الاهرام وأبى الهول ، كما يفخر باستمراريته كشعب موحد عبر آلاف السنين وعدم تحلله وانصهاره بفعل عواصف الزمن التى تمثلت فى استعمار طويل الاجل أو فى استغلال حكام غرباء عنه . هذا الرصيد التاريخى العظيم – فضلا عن دور الاسرة المصرية وتماسكها منذ الازل – من شأنه أن يشحن المستوى التجريدى لمفهوم الشعب فى عقل المواطن المصرى ويعمل على تضخيمه وأسبقيته . وفى المقابل نجد الشعب الامريكى ، ويصفه البعض بأنه شعب بلا تاريخ أو بلا جذور ، لديه من الحاضر المعاش الذى يتجسد فيه التقدم التكنولوجى الأرقى ، كما يتضخم فيه سبق الدولة الاقوى ، ما يعمل على تعظيم المستوى المعاش وأولويته . ومن ناحية ثالثة – نجد الشعب اللبنانى بتمايزه الحاد الى فئات متعددة وطبقات مختلفة ، سواء من حيث الدين أو التعليم أو توزيع الثروة ، ما يجعل الاسبقية والاعلاء للمستوى الفئوى الطبقى .

واذا كانت الصورة الذهنية للشعب تأتى من تفاعل مقومات هذا الشعب مع سيكولوجية الفرد وبنائه النفسى ، وأن هناك مقومات للشعب تعلى الجانب التجريدى وأخرى تعلى الجانب الطبقى وثالثة تعلى الجانب المعاش ، فانه أيضا فى المقابل نجد فى سيكولوجية الافراد ما قد يعمل على أسبقية ادراك هذا الجانب أو ذاك .. كما قال جوته بحق « أن ما فى الداخل هو فى الخارج » . فمن يتفاعل بالرقم (٧) مثلا يدركه أولا من بين الارقام التى يراها فى نفس الوقت ،

ومن يتشاءم من الرقم (١٣) أيضا يدركه أولا ! . وعلى ذلك فيمكن اجراء مقابلة صحيحة بين سيكولوجية الادراك ومقومات الشعب .

فمن الافراد – خاصة القادة والمفكرين والفنانين – من لديهم قدرة كبيرة على التجريد والنظرة الفوقية ، ولذلك فان معاناتهم أحيانا فى المستوى المعاش لا تحجب عنهم قوة تأثير المستوى التجريدى ، فأزمة الاسكان وازدحام الشوارع فى مصر الان لا تستر عنهم عظمة المصريين ووحدتهم عبر آلاف السنين . ومن الافراد من يعتمدون أساساً على الادراك الحسى الملموس ، ولذلك يتأثرون كثيرا بالمستوى المعاش ، يطلبون اللذة ولا يتحملون الالم ، يستهلكون الكثير وينتجون القليل . وغير هؤلاء وهؤلاء يوجد آخرون ، يتعصبون لدين وينسون أن [لا اكراه فى الدين] (البقرة – ٢٥٦) ، ويتعصبون لعلم وينسون أنهم [يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون] (الروم – ٧) ، ويتعصبون لفئة أو لطبقة وينسون أننا جميعا « كمثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » . هؤلاء المتعصبون غالباً ما يدركون « الشعب » موزعا بين قطاعين ، قطاع معهم والاخر ضدهم ، ولا يدرون أن خير الجميع فى الوحدة الوطنية التى تتعايش فيها كل الفئات وتتوافق فيها كل الطبقات .

الأرض :

أرض الوطن .. رغم أننا نعدها جمادا إلا أن فيها القدرة على استقطاب الحب والولاء . وفى علم النفس نقرأ عن سيكولوجية الانسان ، والحيوان ، وربما النبات ايضا ، الا انه لا يفسح مجالا لسيكولوجية الجماد ! . وموضوع الولاء الذى نسعى الى دراسته وفهمه ، والولاء للوطن بصفة خاصة ، يوجِّهنا الى قوة « الأرض » الذاتية كأحد العناصر الرئيسية التى تشكل اقليم الدولة ، ومن ثم فلها قوة الاستقطاب ،

استقطاب البشر ومعهم الحب والولاء ، كما ان لها قوة الطرد فتصبح خواء جرداء .

فليس غريبا اذن ان يتحدثوا فى الجغرافيا عن « شخصية الاقليم » ، والشخصية الاقليمية كما يقول د. **جمال حمدان** : « هى قلب الاقليم ... هى شيء أكبر من مجرد جسم الاقليم وحسب ... هى شخصيته الكامنة »[٥] ، ويقول جلبرت : « ان الجغرافيا هى فن التعرف على شخصيات الاقاليم ووصفها وتفسيرها ... وان شخصية الاقليم كشخصية الفرد يمكن ان تنمو وأن تتطور وأن تتدهور ، ووصفها لا يقل صعوبة »[٥] . ويحسب لهذا القول أو ذاك ابداع التفسير ليس الا ، فان للأرض فعلا حياتها ، يقول الخالق سبحانه وتعالى [اعلموا أن الله يحيي الارض بعد موتها] (الحديد - ١٧) ، وان للارض فعلا مشاعرها [فما بكت عليهم السماء والارض وما كانوا منظرين] (الدخان - ٢٩) ، كما ان للأرض فعلا تسبيحها [تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وان من شيء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم] (الاسراء - ٤٤) .

ان الجغرافيا وهى تطرح لنا مصطلح « شخصية الاقليم » انما تحثنا على تبيان ملامح هذه الشخصية من زاويتنا السيكولوجية . ان للأرض ديناميا تها كما أن لها استاتيكياتها ، وهى قادرة على التفاعل الدينامى مع سيكولوجيات شعبها . وتتعدد الخواص التى تساعد على مثل هذا التفاعل الدينامى الا ان الخاصية الاقتصادية للأرض تأتى فى مقدمتها . فالأرض الزراعية الخصبة تختلف عن الصحراء العقيم . فالاولى بعطائها من المحصولات الزراعية تجذب ولاء مواطنيها وتقوى ارتباطهم بها ، والثانية بعقمها تدفع الى الترحال . ومن هنا كان الفلاح المصرى اشد تمسكا بأرضه منذ فجر التاريخ .

واذا كانت الخاصية الاقتصادية تشكل الاساس القاعدى لشخصية الاقليم ، وهى

فى هذا تتقابل مع الحاجات الفسيولوجية للانسان من طعام وشراب وكساء التى تشكل ايضا الأساس القاعدى للحاجات الانسانية المتصاعدة فى نظرية ماسلو ، فان خاصية الأمن تتلوها ايضا ، متناظرة كذلك مع حاجة الانسان للأمن فى نفس النظرية ، ونعنى بها أمن أرض الاقليم كما توفره طبيعته وموقعه الجغرافى ، أى مدى الأمن الذى يكتسبه من الموانع الطبيعية التى تحيط به كالصحارى والجبال والبحار ، ومن موقعه وسط الاقاليم الاخرى ، ومدى الامن الطبيعى الذى يشيع بداخله ، وحالة الطقس التى تسوده ، أى أمن الموقع وأمن الموضع. وهنا نلتفت الى اقليم مصر الآمن ، فالصحراوتين والبحرين قد تكفلت جميعها عبر التاريخ بأمن الموقع ، وهدوء النيل واعتدال الطقس واستواء الوادى قد تكفلت بأمن الموضع ، وكان لابد بالطبع أن تضاف ارادة الشعب المصرى لتطويع هذا الامن الطبيعى بما يخدم الاقليم ومواطنيه معاً .

هاتان الخاصيتان : الاقتصادية والامنية ، تكفيان لشحن أرض الاقليم بخاصية ثالثة هى « الانتماء » . واذا كانت الخاصيتان الاوليان طبيعيتين فى الاقليم ، فان الخاصية الثالثة يكتسبها بفعل الاستيطان ، وكأن شخصية الاقليم - كما قال جلبرت بحق - مثلها مثل شخصية الفرد ، فيكون لها صفات موروثة الى جانب صفات مكتسبة ، واذا قرر علم النفس ان شخصية الفرد هى محصلة تفاعل الوراثة والبيئة ، فيمكن القول بالمحاكاة ان شخصية الاقليم هى محصلة تفاعل الطبيعة مع البشر (شخصية الاقليم = الطبيعة × البشر) ، وخاصية الانتماء تجمع هذا وذاك .

فالناس قد يستوطنون أرضاً معينة من أجل عطائها الاقتصادى أو لسماتها الامنية ، ومع استمرارية هذا الاستيطان تنشأ وتتثبت لديهم بعض الاشتراطات والاستجابات والروابط السيكولوجية مع بعض اجزائها ، فهذا فرد قد أحبَّ ذلك المكان بذاته لأنه كان يستريح فيه من عناء عمله ، وهذا فرد قد أحبَّ تلك الشجرة

بعينها لأنه كان يلتقى عندها مع حبيبته ، وهذا ثالث قد اشترى قطعة محددة من الارض حين وُلد ابنه الاول ، فارتبط حبه بها ، وهكذا يصير « الانتماء » خاصية مستقلة تميز اقليما معينا حتى انك اذا عرضت على أناسه استيطان اقليم آخر ينافسه فى الرخاء والامن بل ويتفوق عليه لا يرضونه بديلا !.

حقاً ان شخصية الاقليم تفرض نفسها كموضوع للانتماء ، وفى مصر تجد كثيرا من العائلات تنتهى اسماؤها بأسماء أقاليمها ، فهذه عائلة المصرى نسبة الى مصر ، وتلك عائلة الشرقاوى نسبة الى محافظة الشرقية ، أو الطنطاوى نسبة الى مدينة طنطا ، او الأسيوطى نسبة الى اسيوط .. وهكذا . ان « طابا » قد فرحت كما فرح المصريون جميعاً بتأكيد العالم والقانون الدولى أنها جزء لا يتجزأ من أرض سيناء المصرية دائما .. فرحة بفرحة .. وانتماء بانتماء .. وولاء بولاء .

لقد عرضنا مفهوم « الوطن » وكأنه ينطبق على مفهوم « الدولة » ، وهذا ما يؤيده الواقع المعاصر ، وفى ذلك يقول وايزمان : « ان الدولة هى الترجمة القانونية لفكرة الوطن ، ففيها تتلخص جميع الواجبات والحقوق التى تتصل بالوطن »[٤] . كما حاولنا أن نبين كيف أن الولاء الوطنى هو بمثابة كيان سيكولوجى موحَّد – جشطلت – وان اشتمل على ثلاثة اجزاء ، أو هو كالنهر الواحد ذى الثلاثة روافد : الولاء للارض ..والولاء للشعب .. والولاء للحاكم .

رابعا – الولاء الدولى :

ليس بالعسير أن نتمثل العالم كمجموعة من العائلات الدولية ، فالشبه كبير فى العلاقة التى تربط الفرد بأسرته والدولة بعائلتها ، بل انه بقليل من التجاوز يمكن ان نتمثل العالم كله الان كعائلة واحدة يهيمن عليها والدان يتنافسان فى وفاق او فى عدم

وفاق ، هما : الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفيتى ، وتتدرج بقية الدول - بحسب قوة كل منها وعلاقتها بهاتين الدولتين العظميين - كأفراد العائلة الواحدة . وكما نجد التعصب والانحياز فى الاسرة التى لا يتسم فيها الوالدان بالوفاق ، مجموعة تشايع الام وأخرى تعضد الاب وثالثة تحاول ان تكون وسطية غير منحازة لأى جانب وتسعى للتوفيق ولاقامة السلام العادل حفاظاً على استمرار الكيان ، كذلك نجد المجتمع الدولى . ومع ذلك فيمكن تقسيم دول العالم داخل أطر متعددة كعائلات متمايزة .

واذا كان الارتباط الايجابى بين الفرد واسرته يتوقف الى حد بعيد على مدى اكتفائه منها فى حاجاته الاساسية كالحاجة الى الغذاء والحاجة الى الامن والحاجة الى التقدير ، فكذلك أيضا الارتباط الايجابى بين الدولة والعائلة الدولية التى تنتمى اليها . كما أن الدور الابوى فى الاسرة الذى يتمثل فى العطاء ، عطاء الغذاء والحماية والامن ، هو نفس الدور المنوط للدولة الرائدة فى كل عائلة دولية ، هذا إن أرادت كسب ولاء الدول التى تدور فى فلكها ، والاحلاف الدولية القائمة تجسد هذه الحقيقة ومنها حلف الاطلنطى وحلف وارسو .

واذن فالدول شأنها شأن الافراد بإزاء مسألة الولاء ، فالتى تحتاج الى الطعام تطلب المعونات الاقتصادية من الدولة الام ، والتى تحتاج الى الامن والحماية تطلب المعونات العسكرية ، بل ان الدول الصغرى تتطلع أيضا لأن تنال التقدير الكافى من الدول الكبرى كالابن الذى يسعد برضاء والده أو كالتلميذ الذى يسعى الى تقدير مدرسه . ولا شك أن ولاء هذه الدولة أو تلك تجاه الدولة الرائدة يتوقف على مدى اشباع مثل هذه الحاجات الاساسية التى يشترك فيها الفرد والدولة .

ويتكفل ميكانيزم « التوحّد » بنقل نمط العلاقة ونظام الولاء الذى يربط الدولة بالعائلات الدولية الى الحياة النفسية للفرد ، فالفرد يحب ويناصر هذه الدولة الكبرى او تلك العائلة الدولية لان دولته تدعم هذه وتلك وتعمل على نصرتهما ، ولا شك أن دور وسائل الاعلام المختلفة يبرز كعامل حاسم فى إرساء هذه العلاقة ، تماما كما يشجع الفرد نادى كذا لأن والده يشجع نفس النادى ، فهو قد توحّد بوالده فى نفس الاتجاه . والتوحّد بالدولة أيضا يعمل على نقل مشاعر الكراهية والعدوان الى المواطنين تجاه الدولة أو الدول التى تعاديها .

ولكن يحدث احيانا أن يتوحد الابن بالجانب المضاد لأبيه ، فيشجع مثلا النادى الذى ينافس النادى الذى ينتمى اليه الاب ، أو ينتمى الى الحزب السياسى الذى يعارضه الاب ، هنا - غالبا - ما يكون الابن مدفوعا للجانب المضاد بفعل الغضب المتراكم الذى يختزنه فى نفسه من الاب لمدة طويلة ، فهو لا يستطيع معارضة الأب صراحة ، ومن ثم يلجأ - لا شعوريا فى أغلب الاحوال - الى تدعيم الجانب المضاد لأبيه متخذا من المبررات ما يساعد على الصمود فى هذ الموقف الصعب .

هذا الموقف السيكولوجى يصلح ايضا لتفسير كثير من المواقف التى نجد فيها فردا ما يوالى دولة او عائلة دولية تعادى وطنه ، مبررا موقفه الصعب هذا بتفسيرات ايديولوجية أو دينية معينة يتصور معها أنه على حق وأن أغلبية الشعب وحكامه فى ضلال وخداع ، وقد يرجع السبب الحقيقى لهذا الموقف الشاذ الى أن هذا الفرد قد عانى لفترة طويلة من اضطهاد رئيس له فى العمل أو ناله ضرر كبير بصدور قانون معين أفاد منه معظم أفراد الشعب . ان الحياة النفسية ، ويحتل فيها الولاء مساحة هامة ، لا تخضع بالضرورة للمحددات الموضوعية ، اذ أن العوامل الذاتية والموقفية كثيرا ما يكون لها الغلبة فى توجيه مشاعر الفرد وسلوكه .

ان مصر كدولة .. تنتمى لاكثر من عائلة دولية ، ومن أبرز هذه العائلات الدولية : مجموعة الدول العربية ، ومجموعة الدول الاسلامية ، ومجموعة الدول الافريقية ، ومجموعة دول البحر المتوسط . ونلحظ بسهولة أن انتماءها لهذه العائلات الدولية يتسم بالاستقرار بسبب ثبات الموقع الجغرافى أساساً ، بخلاف انتمائها لعائلات دولية أخرى مثل : مجموعة الدول الاشتراكية ، ومجموعة الدول الرأسمالية ، ومجموعة دول عدم الانحياز ، فذلك يتوقف الى حد كبير على الظروف السياسية والاقتصادية المتغيرة . ولاشك أن تلك الانتماءات المتعددة لها آثارها الواضحة على الشعب المصرى ، وعلى ذلك فهى تفرض وجودها فى الحياة النفسية لافراده ، ولا مفر اذن من أن ينبثق عنها عدد من الولاءات وإن تباينت فيما بينهما من حيث القوة والضعف أو الايجاب والسلب . ولا يفوتنا هنا أيضا الآثار الضخمة المترتبة على التقدم الهائل فى وسائل الاتصال المسموعة والمقروءة والمرئية والتى جعلت كل العالم يدرك نفس الحدث فى نفس اللحظة بصرف النظر عن مكان حدوثه .. فى الارض او فى القمر .

وعلى سبيل المثال لا ينبغى أن نتوقع ان يتساوى جميع المصريين فى ولائهم لمجموعة الدول العربية او لمجموعة الدول الاسلامية بالرغم من أن هذا الولاء أو ذاك يعد من الأمور المسلم بها بالنسبة للشعب المصرى بصفة عامة ، فمصر هى قلب الامة العربية وهى الدولة الرائدة بين دولها بحكم موقعها وتاريخها وحضارتها الى جانب حجمها وتضحياتها فى سبيل الحفاظ على الكيان العربى على مر التاريخ . كما أن الازهر الشريف شاهد على أنها حصن منيع للاسلام الحنيف منذ أمد بعيد . ومع ذلك فلنا أن نتوقع أن طبيعة الولاء لعائلة الدول العربية أو لعائلة الدول الاسلامية تختلف بين الافراد باختلاف الفروق الفردية والدوافع الشخصية .

فمن الافراد من يعتقد بوجوب أسبقية الولاء للكيان العربى على الولاء الوطنى بدافع شعار القومية العربية - على مثال عبدالناصر كما اعتقد ويعتقد الكثير خاصة بعد أن غيّر اسم مصر ليصبح « الجمهورية العربية المتحدة » فبدى وكأن مصر ذابت فى بحر العرب . ومن الافراد من يعتقد بوجوب أسبقية الولاء للكيان الاسلامى على الولاء الوطنى أو على الولاء للكيان العربى بدافع إعلاء راية الاسلام - على مثال الزعيم مصطفى كامل برضائه عن استمرار تبعية مصر للولاية العثمانية حفاظا على الكيان الاسلامى . وبداهة نجد من يُعلى الولاء للوطن على أى ولاء آخر ، واذا اشترك فى جدل يبرر موقفه بأنه من الافضل للوحدة العربية أو للوحدة الاسلامية أن تتم بين أوطان ناضجة قوية بولاء مواطنيها ، وفى ذلك خير أكثر للقومية العربية وللدين الاسلامى ، فثمة فرق بين العروبة والعرب وبين الاسلام والمسلمين . ويمكن ان نجد ايضا من يقيم توازناً مقبولاً بين الولاء لمصر والولاء للكيان العربى أو الكيان الاسلامى ، وينفى مبدأ التساؤل عن أسبقية أحدها على الآخر ، أو قد يربط بين هذه الاسبقية والظروف المرحلية والتاريخية التى يعيشها الوطن فى اطار عائلة الدول العربية او عائلة الدول الاسلامية .

الا ان هناك ولاءات نحو عائلات دولية تشوبها الدوافع الشخصية العدوانية وتنشأ داخل الفرد على سبيل التعويض ولكنه هنا تعويض سلبى . فقد يعانى مواطن مصرى من نقص ولائه نحو وطنه لسبب أو لآخر كاحباط فى العمل أو خلاف مع الرئيس ، فاذا به يعوض هذا النقص بتضخم سرطانى فى ولائه نحو دول عربية أو اسلامية متطرفة أو متعصبة ، أو نحو دول أجنبية شرقية أو غربية ، وهو يبرر موقفه المريض هذا لنفسه وللآخرين من خلال تفسيرات خاصة للقومية العربية أو للشرائع الاسلامية أو للحلول الشيوعية أو للحرية الشخصية . وقد يعتقد مثل هذا

الفرد – سواء من خلال إدراك خاطىء أو تضليل مفتعل أو لا شعور مضطرب – أنه في موقفه المعارض هذا انما يعمل لصالح وطنه .

ومع ذلك فكثيرا ما يكون الاعجاب بدولة أجنبية أو الولاء لها أو لحضارتها دافعا قويا لتنشيط الولاء الوطني واستثارته . واذا توقفنا عند د. طه حسين كمثال على التعويض الايجابي ، نجده قد حصل على الدكتوراه من جامعة السربون ، وتزوج من فرنسية ظلت – على حبها له – محافظة على فرنسيتها ، وبرغم ان طه حسين تعرض لاحباطات متعددة في وطنه ، وفقد بصره نتيجة للجهل الذي كان متفشيا في قريته ، الا أن توحده بمصر زاد قوة بزيادة نضجه واحتكاكه بدول العالم المتقدم . ففي مواجهة الجهل رفع شعار « العلم كالماء والهواء » ، وفي مواجهة الظلم كتب «المعذبون في الارض » .

ويبدو أن احساس طه حسين بنعيم الحرية في نفسه قد تناغم مع شعار الحرية في فرنسا ، وربما كان ذلك احد العوامل الهامة في توافقه في حياته مع زوجته ، فهي فرنسية حرة وهو مصري حر ، يحادثها بالفرنسية ولكنه يكتب بالعربية الفصحى للمصريين وللعرب أجمعين . فاتجاهه الايجابي نحو فرنسا والغرب بصفة عامة دفعه لأن يكرّس جهوده لخدمة وطنه مصر حتى تصير دائما جميلة متقدمة شأن العالم المتقدم الذي تطلّع اليه . فاذا كان طه حسين قد نجح بجهده وتصميمه أن يخلع عن نفسه كل عوامل التخلف والضعف بما تضمنته من فقر وجهل ومرض ، وأن يمتلك أسباب التقدم والقوة بما فيها من فكر وعلم وتحضر ، فهكذا مصر .. بجهد أبنائها المخلصين وبولاء شعبها الوفي تتمكن من العبور الى آفاق العلم والرخاء .

خامسا - الولاء العقائدى :

عرضنا رؤيتنا لمفهوم الولاء بأنه وحده كلية - جشطلت - أو بناء موحد ينتظم فى شكل هرمى يتألف من خمس درجات متصاعدة ، وقد أوضحنا كيف أن الولاء الأنانى يشكل قاعدة هذا الهرم ، يليه الولاء الاسرى ، ويكون الولاء الوطنى فى الدرجة الوسطى ، يعلوه الولاء الدولى - لعائلة دولية أو أكثر من دول العالم - وأخيرا يأتى الولاء العقائدى على قمة الهرم - وهو ما نسعى الى بيانه الان .

ويختلف الولاء العقائدى عما دونه من ولاءات فى أنه يتصف بالتجريد والابهام ، ومن هنا فهو يسمح بالتسامى برغم الفروق بين الافراد والجماعات . فالمؤمن يتسامى بنفسه وبولائه مرتقيا من أنانية الذات السفلى الى نور الذات العليا .. سعادته تتحقق فى قربه من الله العلى القدير ، وهذا هو التسامى الحق والعلو الحقيقى . الا ان هناك ايضا تساميا خداعاً أشبه بالصعود الى الهاوية ، فالكافر قد يتخلى عن أنانيته الذاتية وقد يضحى بمصالحه الشخصية فى سبيل تحقيق الشيوعية العالمية - على سبيل المثال - التى تنطلق من الفلسفة المادية وانكار الاديان . والعلم يصلح أيضا لان يكون موضوعا للتسامى بالولاء ، فنجد عالما يعطى ولاءه للعلم فى اطار خشية الله [إنما يخشى الله من عباده العلماء] (فاطر - ٢٨) ، بينما نجد عالما آخر يمنح ولاءه الاسمى للعلم وحده خارج اطار الاديان وربما الاخلاق أيضا .

وهكذا نرى أن هذا المستوى القمّى من بنية الولاء يشتمل على أفكار ومفاهيم ومبادىء نتمثلها فى أذهاننا فى معان وكلمات مثل : الله ، الدين ، العلم ، الانسانية ، الايديولوجية . وهذه المعانى والكلمات تطرحها كل الثقافات أمام كل الافراد كموضوعات تستقطب ولاءهم العقائدى . وأحيانا يكون هذا الولاء العقائدى سببا فى دعم كل أجزاء بنية الولاء فى نفس الفرد والعمل على انسجامها مع بعضها البعض ،

وأحيانا ما يكون سببا فى استثارة الصراع فيما بينها والعمل على تصدّع كل البناء . ولاشك أن عملية التفاعل هذه ونتائجها تتوقف الىٰحد كبير على صحة العقيدة فى ذاتها وعلى سلامة فهمها وادراكها .

ان صفتى التجريد والابهام اللتين تتصف بهما موضوعات الولاء العقائدى تساعد على ممارسة عملية نفسية معروفة وشائعة هى « الاسقاط » . أى أن الفرد يُسقط لا شعوريا - غالبا - ما بداخله من مشاعر على الموضوعات الخارجية . فمثلًا اذا عرضت صورا مبهمة على شكل سُحب ، فقد يراها الجائع أشكالاً لبعض أنواع الطعام ، تماما كالمثل القائل « الجعان يحلم بسوق العيش » ، وقد يراها الخائف أشكالاً لبعض الحيوانات المفترسة أو لموضوعات مخيفة بالنسبة له ، تماما كالمثل القائل « اللى يخاف من عفريت يطلع له » ، أى أن ادراك الفرد للموضوع المطروح أمامه قد يُحرِّف أو يُشوَّه بسبب صراعاته الداخلية .

ان سماع الخطب الدينية لوعاظ مختلفين يبين لنا كيف يمارَس ميكانيزم الاسقاط فى مجال الدين . فاذا صادفت واعظاً يختزن فى داخله قدراً كبيراً من العدوانية ، ربما نتيجة لأب صارم وتربية متشددة ، تجده غالبا ما يختار آيات الترهيب والأحاديث التى تتناول العذاب والعقاب للتدليل على آرائه الخاصة التى يدعو لها ، وذلك على خلاف واعظ آخر يتصف باللين والسماحة ، ربما لنشأته في أسرة تنتهج أسلوب العفو والتسامح فى تربية الاطفال ، تجده غالبا ما يختار آيات الترغيب وأحاديث الرحمة والمغفرة ، فكلٌ قد اختار ما ينسجم مع بنائه النفسى ، الا أن ذلك لا يمنع بالطبع أن تجد من الوعاظ - وهم كثير - من يقيم خطبته على الموضوعية والتوازن الحق .

واذا ما اقتربنا أكثر من مشكلة السؤال المطروح دائما حول علاقة الدين بالسياسة ونظام الحكم ، وهو يرتبط بالولاء العقائدى وبطريقة ادراك الفرد والجماعة ، وبطبيعة بنائهم النفسى ، وبمصالحهم الذاتية ، نجد أن المشكلة تتأرجح بين نظرية الحكم بالحق الالهى ونظرية الحكم بالحق الطبيعى . ونجد أن المشكلة قد طرحت سواء فى الاسلام أو فى المسيحية . فمبدأ ضرورة الوحدة بين الدين والسياسة والحكم بالحق الالهى وأن الحاكم بذلك هو خليفة الله فى أرضه ، يؤمن به كل من الشيعة المسلمين واللاهوتيين الكاثوليك . ومبدأ وجوب الفصل التام بين الدين والسياسة والحكم بالحق الطبيعى وأن الحاكم هو نائب الأمة ، قد أعلنه صراحة كل من الشيخ على عبدالرازق فى كتابه « الاسلام وأصول الحكم » ومارسيليو أوف بادوا فى كتابه « المدافع عن السلام » . ولعل كلا من الشيخ محمد عبده وتوماس الاكوينى قد حاول أن يتخذ موقفا وسطا ازاء المشكلة وقال بالوحدة والفصل معا بين الدين والسياسة ، فالوحدة تتحقق باقامة العدل والحق كما يأمر الدين ، والفصل واجب بالنظر الى بشرية الحاكم التى لا تعصمه من الخطأ، ومن هنا يحق للشعب بمجموعه أن يرده الى الطريق الصحيح .

نتبين اذن أن قد نشأ أحيانا تعارض أو صراع بين الولاء الدينى والولاء السياسى سواء داخل الفرد أو بين الافراد والجماعات . وهذا التناقض يرجع أساسا للبناء النفسى للفرد الذى يدرك ويفسر النصوص القرآنية أو الانجيلية بطريقته الخاصة أو بطريقة بعض الدعاة والقادة . وحتى فى حالة الوفاق والانسجام بين الولاء الدينى والولاء السياسى ، فذلك يعود أيضا بشكل أساسى الى الصحة النفسية للفرد وسلامة ادراكه واستجابته للنصوص الصحيحة .

****

وحـــدة الولاء

ينبثق الولاء - كما عرضنا - من التفاعل بين البنية النفسية داخل الفرد والبنية البيئية خارجه، بين حاجات الفرد الاساسية والموضوعات المادية والاجتماعية ، مثلما يشعر الفرد بالجوع فيبحث عن طعام ، ويشعر بالخوف فيحتمى بسلطة. وقولنا ان الولاء ككل يتألف من خمسة أعضاء رئيسية : الولاءات : الأنانى ، والاسرى ، والوطنى ، والدولى ، والعقائدى ، لا يلغى وحدة الولاء . فهذه الولاءات الخمسة مثلها مثل روافد المياه التى تكوّن النهر الواحد . كما أن قولنا بوحدة الولاء لا يطمس وجود تلك الولاءات الجزئية والدور المميز الذى يسهم به كل منها .

الولاء اذن من قبل ومن بعد كالجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الاعضاء ، واذا صحّ منه جزء استجاب له كل البناء .

ويختلف كل عضو ، أو كل ولاء جزئى ، عن الاخر من حيث طبيعة الدور الذى يسهم به فى تكوين الولاء الكلى ، تماما كاختلاف دور القلب عن دور العين عن دور اليد فى الجسد الواحد . وغالبا ما يكون أحد الولاءات الفرعية ، كالولاء الوطنى أو العقائدى، على قدر مرتفع من التفاضل والتمايز بحيث يلعب دورا مهيمنا ورائدا ، ومن ثم يعمل على صبغة البناء كله بصبغته الخاصة وان كان - فى نفس الوقت - لا يمحو تمايز الاعضاء الاخرى .فكما تكون مصر قلب الامة العربية ، بموقعها وحجمها وتاريخها وحضارتها ، تكون هى العضو الرائد فى كوكبة الدول العربية .

فحين يكون الولاء للوطن هو العضو الرائد فى بناء الولاء الكلى داخل الفرد ، فانه لا يمحو ولاءه لذاته أو لاسرته أو لعروبته أو لعقيدته ، ولكنه غالبا ما يوظّف هذه الولاءات الاخرى وسلوكه العام فى خدمة الولاء للوطن . وكذلك الحال حين يكون الولاء للعقيدة الدينية هو الولاء المهيمن . وعلى سبيل المثال - عندما قامت الحرب بين مصر

واسرائيل ، فليس من المستبعد أن يكون البعض قد حارب دفاعا عن مصر أولا ، وأن يكون آخرون قد حاربوا دفاعا عن الاسلام أولا ، وآخرون حاربوا دفاعا عن العروبة أولا - وذلك على منوال اشارة أورجانسكى السابقة - فبرغم أن النتيجة واحدة الا أن صبغة الولاء ولونه العام يختلف ، ومع ذلك فان هذه الصبغة أو تلك لا تمحو فكرة الحرب دفاعا عن مصر وعن الدين وعن العروبة فى نفس الوقت فى نفوس كل المصريين .

ان وحدة الولاء تقوم على الاتصال الدينامى بين أعضائه ، فالولاء بناء دينامى فى حالة تفاعل مستمر ، وهناك من التفاعلات المستمرة ما تصنع ولاء مستقرا وقويا وتحافظ بشكل عام على استمرار مركز الثقل لصالح الولاء للعقيدة أو لصالح الولاء للوطن على سبيل المثال ، كما أن هناك من التفاعلات ما تعمل على تغيير مركز الثقل فى بنية الولاء الكلى وبعد أن كان لصالح الاسرة مثلا يصير لصالح الانسانية كلها - أو العكس .

ان فكرة وحدة الولاء واختلاف الاوزان أو تباين الثقل بين أعضائه الفرعية يمكن أن نمثّل لها بأن نخصص للولاء الكلى (١٠٠) درجة ، وهذه المائة درجة تتوزع بين الولاءات الفرعية الخمسة ، ويختلف الافراد فيما بينهم فى كيفية هذا التوزيع ، كما يختلف الفرد ذاته فى توزيعها عبر حياته .

فقد يكون نصيب الولاء العقائدى (٤٠) درجة ، ونصيب الولاء الوطنى (٢٥) درجة ، والولاء الدولى (١٠) درجات ، والولاء الاسرى (١٢) درجة ، والولاء الانانى للمصالح الشخصية (١٣) درجة ، ويتكفل مبدأ الدينامية بتعديل مثل هذا التوزيع . فقد تقوم الحرب دفاعا عن الوطن ، ويصبح الوطن هو الموضوع الرئيسى الذى يستقطب معظم شحنة الولاء ويرتفع بذلك نصيبه من الدرجات ربما الى (٧٠)

درجة أو يزيد ، ويبرز الوطن حينئذ كدرع للدين وصرح للعروبة وراع للاسرة وللفرد ، فيتوحد الولاء كله أو معظمه فى خدمة الوطن والدفاع عنه ، ثم بعد أن تنتهى الحرب ويأمن الوطن وتستقر الامور ، قد يعود توزيع الدرجات بين الولاءات الفرعية الى ما كان عليه قبل الحرب ، ويتذكر الجندى اسرته ، والكاتب عروبته ، ويلتفت التاجر الى ربحه ، وتهتم المرأة بزينتها ، بل وربما يعود اللص الى السرقة بعد أن كان يستحى أيام الحرب .

يوضح لنا المثال السابق أن هناك أكثر من صيغة محتملة لوحدة الولاء . فالولاء قد يكون موحداً ولكن تحت رايات مختلفة ، فبنية الولاء قد تعلوها راية الوطن أو راية العلم أو راية الاسرة والقبيلة أو راية الانانية ، وفى كل هذه التشكيلات المختلفة يكون الولاء موحدا بصرف النظر عن مدى صحة الولاء وأحقيته .

وفى المقابل يكون هناك أيضا أكثر من صيغة لانقسام الولاء ، وذلك حين يتعارض ولاءان أو أكثر من الولاءات الفرعية ، سواء كان تعارضا حقيقيا فى الواقع المعاش أو غير حقيقى ، فالمهم أن يكون التعارض ماثلا فى عقل الفرد .

ففى موقف ما ، قد يرى الفرد تناقضا بين الولاء للوطن والولاء للعروبة ، أو بين الولاء للوطن والولاء للدين ، هنا ينشأ الصراع ويتفكك الولاء وينقسم الفرد على نفسه . ولكن الفرد لا يتحمل هذا التفكك والانقسام ، ويتكفل مبدأ الدينامية الذى يحكم جشطلت الولاء مع الحيل الدفاعية النفسية التى يلجأ اليها عقل الفرد - لا شعوريا - ومنها التبرير والتعويض ، فى العمل على اقامة واستعادة وحدة الولاء ، اذ أن وحدة الولاء هى حالة ضرورية يظهر معها المعنى العام الذى يستمد منه الفرد وجوده ويكرس له نشاطه ، ومن ثم فاذا حدث الانقسام فان القوى النفسية والاجتماعية تنشط وتتجمع من اجل اعادة حالة الاستقرار التى تلازم صيغة الوحدة. وليس من

الضرورى كما اشرنا أن تقوم وحدة الولاء على الحق – وان كان ذلك هو الكمال المطلوب – ولكن هناك أكثر من صيغة لتحقيق الوحدة والاستقرار النسبى .

وعلى ذلك فحين ينشأ صراع بين الولاءات الفرعية لبنية الولاء الكلى، بين الولاء الدينى والولاء السياسى أو بين الولاء القومى ومصالح الفرد مثلا ، فانه بقدر معاداة موضوع ما يتضخم الولاء لموضوع مقابل – وذلك على سبيل التعويض ، نقص فى الولاء السياسى يقابله تضخم فى الولاء الدينى، نقص فى الولاء القومى يقابله تضخم فى أنانية الفرد ، ويدعم هذا التعويض – من أجل الوصول الى الوحدة والاستقرار النسبى – التبريرات التى يحتمى بها الفرد ، سواء كانت تبريرات زائفة أو حقيقية ، فالفرد يبرر تضخم أنانيته بأن يقول – على سبيل المثال – لنفسه وللآخرين-بأن الأنانية هى طابع العصر وأن الكل يرفع شعار « أنا ومن بعدى الطوفان » وأن أية تضحيات يبذلها ستضيع وسط هذا الفساد المنتشر ! وأن من يرفع شعار الفضيلة انما يرفعه عن عجز أو عن رياء ! ولا شك أن مثل هذه التبريرات الزائفة تعمل على وحدة الولاء واستقراره ، ولكنها تظل فى الاطار النسبى الضعيف ، ففى داخل كل انسان ميزان للعدل سوف يؤرقه اذا حاد عنه ، حتى وان تناساه ، حتى وان طمسه فى شعوره ووعيه ، لأن ميزان العدل يعمل تلقائيا فى الشعور وفى اللاشعور ، يؤرقه بفعل الشعور بالذنب كما يقول التحليل النفسى ، أو بالنفس اللوامة كما فى القرآن الكريم .

ان ديناميات الولاء تبرز امكانية التنبؤ بالبدائل المحتملة لتوجّهات الفرد الذى يعانى من تصدعات فى بنية الولاء . فالولاء كما أشرنا هو بناء أو جشطلت يسعى بطبيعته الى الاتزان والاستقرار ، فاذا نشأ صراع بين أجزائه تسبب فى اشاعة الاضطراب فى البناء كله ، ومن ثم يمكن بالدراسة المتعمقة أن نتوقع الصياغات

المختلفة التى يمكن ان يستقر عليها ولاء الفرد أو الشعب ، وأيها أكثر احتمالا بالنسبة لطبيعة بنائه النفسى والظروف البيئية التى يحياها .

فعلى سبيل المثال – قد ينشأ فرد كارها لأبيه بسبب قسوته فى التربية أو ظلمه فى التفرقة بين الابناء فى الثواب والعقاب – حسبما يتصور هذا الفرد – ولنفرض أن الاب كان من رجال الدين والمشتغلين به ، فاذا بابنه هذا يعتنق الشيوعية الملحدة ، ليس عن قناعة بمبادئها ، ولكن لانها الجانب المضاد لابيه المتدين . الا أن هذا الموقف يولد صراعاً مع الولاء للوطن الذى يرفض الشيوعية كعقيدة ويستلهم من الدين كل التشريعات والقيم . هنا يعانى هذا الفرد من انقسام الولاء بداخله ، فولاؤه لنفسه يتعارض مع ولائه لأبيه ، وولاؤه لوطنه يتعارض مع ولائه لعقيدته . والانقسام حالة مرهقة يسعى الفرد لإنهائها لتحقيق المواءمة والاتزان اللذين يتحققان مع الوحدة .

واذن ، فان هذا الفرد اما أن يعود الى ساحة الايمان ليجد فيها العلاج الشافى بحسن الفهم وحسن السلوك وحسن الجزاء ، فيحقق التوافق مع نفسه ومع أبيه ومع وطنه ، واما أن يتوحد أكثر مع الشيوعية كعقيدة ، فيقرأ فيها أكثر ليقتنع بها أكثر ، ويتوحد كذلك مع دولة شيوعية كبديل لوطنه الام ، ومن ثم يزيد اغترابه عن وطنه ، اغتراب عقله حتى وان ظل يعيش فيه بجسده.والحل الثالث لمثل ذلك الصراع ، أن يتخذ هذا الفرد الموقف الوسط هنا ويجرى مع نفسه عملية مواءمة أو مصالحة بازاء عقيدته الشيوعية التى تتعارض مع القيم التى يتبناها وطنه ومواطنوه ، ويطلق على نفسه ما يسمى أحيانا فى المصطلحات السياسية «اليسار الوطنى» أو « اليسار الدينى » .

ان ما يرجح حلا عن آخر هو طبيعة البناء النفسى للفرد ومدى صحته النفسية وذكائه واتجاهاته ، وكذلك الظروف التى يحياها فى بيئته الاسرية ، وفى محيط المجتمع الذى ينتمى اليه .

****

الفصل الثالث

الولاء الحق

- لمن ؟
- أسبقيات الولاء الحق
- مقومات الولاء الحق

الـولاء الحـق

□□ لمـن ؟

[هنالك الولاية لله الحق هو خير ثوابا وخير عقبا] (الكهف – ٤٤) .

فالولاء الحق لله الواحد الأحد .. الملك القدوس السلام .. المؤمن المهيمن .. هو الولاء الذى ينبثق عن أفضل صيغة وأقوى بنية ، إنه الجشطلت الحسن الذى تتمثل فيه الوحدة الكلية و الصلات الدينامية السليمة بين أعضائه . فيه يتحقق الاتزان المطلوب بين الولاءات الفرعية ، فلا تعارض بين الأنا والمجتمع أو بين الوطن والعقيدة ، بل تكامل فى الأدوار وانسجام فى الأهداف .

[أفمن أسـس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسـس بنيانه على شفا جُرف هار فانهار به فى نار جهنم] (التوبة – ١٠٩) . فأقوى بنية للولاء تلك التى تتأسـس على تقوى الله وشريعته . وإذ نرى أن الاسلام هو الأكثر وضوحا فى بيان الولاء الحق وبنيته ، والعلاقات الصحيحة بين عناصرها وأجزائها ، والمسار السليم للفرد وللمجتمع ، والتوازن السوى فيما بينها ، إلا أن الجوهر واحد فى كل الأديان السماوية ، وفى هذا نقرأ فى القرآن الكريم [إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويُقتلون . وعدا عليه حقا فى التوراة والانجيل والقرآن . ومن أوفى بعهده من الله . فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم] (التوبة – ١١١) أى أن الفوز العظيم يتحقق بالولاء لله وبالتضحية فى سبيله بالنفس والمال ، وأن

هذا الوعد الحق قائم فى التوراة والانجيل والقرآن . وعلى ذلك فلاتعارض بين الأديان فى تقرير الولاء لله ، وأن كيفية ممارسة هذا الولاء وتحقيقه على مستوى الفرد والمجتمع يمكن استخلاصها من كافة الأديان السماوية ؛ فإن اختلفت الأشكال فالجوهر واحد ، والكل يعبد الله الواحد الأحد .

إن الولاء لله الحق - كمابيّنه الاسلام - يجمع بين التميّز والعموميّة ، وبين التفرّد والشمولية ، وهذا سر كماله وإعجاز جماله !

فهو ولاء متميز عن بقية الولاءات الفرعية التى عرضناها سلفا فى البناء الهرمى المتصاعد للولاء ، فمكانه أعلى الهرم - فى المستوى العقائدى ، أما الولاءات الاخرى : للذات وللاسرة وللوطن ولعائلة دولية ، فهى درجات متتالية تتصاعد متسامية إليه فى القمة حيث يكون . وهو ولاء عام من حيث أنه فطرى يشترك فيه كل البشر وإن كان واضحا لدى المؤمن مستورا عند الكافر [وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين] (الأعراف - ١٧٢) . وهو ولاء متفرّد لأن الله الواحد الأحد يتفرّد به ، كما أنه فى نفس الوقت ولاء شامل يتضمن كل الولاءات الأخرى فى صيغتها الصحيحة ، سواء كانت ولاءً للذات أو ولاءً للمجتمع بكافة أبعاده بدءاً من الاسرة إلى الوطن إلى الانسانية جمعاء . وقد حقق هذا التفرد مع الشمول وحدة الولاء واستقراره .. وتوافق الفرد وسلامه .

والجدير بالذكر هنا ، ماورد عن «**جورباتشوف**» فى كتابه « البيريسترويكا » فى قصة طريفة لها مغزاها السيكولوجى عن أثر الولاء الدينى على الفرد ، خاصة حين يحكيها رئيس الاتحاد السوفييتى - أول الدعاة للشيوعية - قال : « اقترب مسافر من بعض الناس الذين يقيمون بناء وسألهم واحدا واحدا :

«ما الذى تفعله ؟» وأجاب أحدهم مستفزا : « انظر ، إننا من الصباح حتى الليل نحمل هذه الاحجار اللعينة .. » ، ونهض آخر من على ركبتيه وشدّ كتفيه وقال بفخار : « إننا نبنى معبدا ، كما ترى ! » . ويعلق جورباتشوف على القصة بقوله : « وهكذا فإذا كان أمامك هذا الهدف النبيل - معبد يضىء فوق ربوة خضراء - فستكون أثقل الاحجار خفيفة ، وأشق الاعمال ممتعة » (٦) .

إن وحدة الولاء تتحقق كاملة بالولاء لله . فالفرد حين يمارس الولاء الصحيح لذاته أو لأسرته أولوطنه أو لعروبته أو للانسانية جمعاء فهو فى نفس الوقت يمارس الولاء لله . والقرآن والسنة النبوية يفصحان بجلاء عن هذه الوحدة .

فعن الولاء للذات ووضع طموحات الفرد ومصالحه الشخصية موضع الاعتبار ، يقول سبحانه وتعالى : [وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولاتنسى نصيبك من الدنيا] (القصص - ٧٧) ، ويقول [ولاتلقوا بأيديكم إلى التهلكة] (البقرة - ١٩٥) . كما تتعدد الآيات عن الولاء الأسرى ومنها [وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا] (الاسراء - ٢٣) ، [ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودّة ورحمة] (الروم - ٢١) .

كما يتبدّى الولاء للمجتمع كله - شعوبا وقبائل - فى هذه الآية الجامعة [يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم] (الحجرات - ١٣) . فالآية تبدأ بمخاطبة كل الناس وتؤكد لهم أن أباهم واحد وأن أمهم واحدة ، فوق أنهم جميعا من طبيعة إنسانية واحدة ، إلا أن تلك الوحدة فى الطبيعة وفى الأصل لاتمنع تمايزهم إلى شعوب وقبائل ، فكل مجتمع له مقوماته وسماته المشتركة التى تعمل على تميّزه [واختلاف ألسنتكم وألوانكم] (الروم - ٢٢) . وتتم المواءمة بين الاختلاف القائم بين الشعوب

والأصل المشترك بينهم من خلال التعارف [لتعارفوا] ، وتتحقق الوحدة ويسرى الانسجام بفعل التقوى [إن أكرمكم عند الله أتقاكم] ، فجعل الله عِلّة الاختلاف وهدفه معاً فى « التعارف » الذى يتم على أساس التقوى ، وهو تعبير أعمق وأعم من التعبير المعاصر « التعايش السلمى » ، فهو تعارف كريم يكتشف الأفراد والمجتمعات من خلاله أنهم أخوة فى الانسانية ذات الأصل الواحد ، سواسية فى العبودية لله الواحد ، لافضل لعربى على أعجمى ولالأبيض على أسود إلا بالتقوى .

فالولاء لله الواحد الأحد يحقق الوحدة والانسجام بين جميع الولاءات المطروحة . فالفرد مدعوٌ لأن يعمل على نماء ممتلكاته وأن يستمتع بحياته فى إطار ماشرعه الله . فالمؤمن القوى خير من المؤمن الضعيف . وللمرء أن يستجيب لنزعاته الانسانية والاجتماعية ، وأن يمارس ولاءاته نحو أسرته ونحو مجتمعه ونحو الانسانية ونحو كل ماهو خير من عقائد وايديولوجيات ، ومعيار الخير واضح فى كتابِ الله وسُنّة رُسله ، هذا إن تعذر وضوحه فى نفس الفرد وفى ضميره .

ولن ينشأ أى تعارض أو صراع بين ولاء وآخر إذا ما انتظمت جميع الولاءات على نفس المنهج ، وسارت نحو نفس الغاية ، والغاية واضحة فى القرآن الكريم [وماخلقت الجن والانس إلا ليعبدون] (الذاريات – ٥٦) . فحين يكون الولاء للذات عبادة ، والولاء للأسرة عبادة ، والولاء للوطن عبادة ، والولاء للاسلام ولأمته وللعروبة ولأمتها وللانسانية كلها عبادة ، والعبادة فى كل هذه الولاءات لله الواحد الأحد ، فكيف ينشأ التعارض .. ومن أين يأتى الصراع ؟! .

****

□□ أسبقيات الولاء الحق

مادمنا نتناول الولاء الحق فإننا لانقصد الولاء كقيمة مجرّدة أو الولاء كما هو كائن لدى هذا أو ذاك ، ولكننا نقصد الولاء كما ينبغى أن يكون من وجهتنا الخاصة . ولقد قلنا أن الاسلام هو الأكثر وضوحا فى عرض هذه المسألة منهجا وممارسة ، آخذا فى اعتباره الطبيعة الانسانية فى تشكيلاتها فى الفرد وفى المجتمع ، وفى ترددها بين الخير والشر ، وفى حركتها بين التسامى والنكوص . ويبقى علينا نحن أن نستخلص السمات المميزة لبنية هذا الولاء الحق ، وأن نوائم بينها وبين ملامح إنسان العصر وخواص مجتمعنا الذى نعيش فيه .

ولاشك أن كثيرا من أفراد هذا العصر يواجهون مشكلة أسبقيات الولاء ، إذ أن الولاء الذى انتظم فى تشكيل معين قد لايصمد أمام فيض المعلومات المتنوعة والمتضاربة التى تغزو عقل الفرد رغما عنه ، معلومات من الشرق وأخرى من الغرب ، معلومات من الفقراء وأخرى من الأغنياء ، معلومات من المسجد أو الكنيسة وأخرى من المعمل أو الفضاء . كما قد تعمل الاغراءات المتنوعة أمام الفرد على تفكك ولائه ونشوب الصراع بين أسبقياته ، المال للشراء والجنس للاشتهاء والسياسة للاستعلاء [أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضلّه الله على علم] (الجاثية - ٢٣) . وفى خضم هذه الأمواج المتلاطمة من المعلومات والنداءات الملحة من الاغراءات ، وكلها تعمل على استقطاب الولاء ، يتساءل الفرد والمجتمع عن أسبقيات الولاء الحق.

إن الولاء لله تعالى .. الولاء للدين .. الولاء للعقيدة .. هو الغاية التى ينبغى على كل فرد وكل مجتمع أن يتحرك إليها . هذا الولاء الأسمى ينبغى أن يكون هو الولاء الرائد فى جشطلت الولاء الكلى ، يصبغ البناء كله بصبغته ، ويوظّف

الولاءات كلها لتحقيقه . فالفرد وهو يأخذ نصيبه من الدنيا .. يبتغى الدار الآخرة ، والفرد وهو يرعى أسرته وينصر وطنه ويتكافل مع أمته .. فهو يجاهد فى سبيل الله .

فالولاء لله إذن له الأسبقية الغائية فى جشطلت الولاء ، فهو غاية ولاء الفرد لذاته فيبعده عن مساوىء الأنانية ، وهو غاية الولاء للأسرة والولاء للوطن فينقّيهما من شرور التعصّب ، وهو غاية الولاء لكل ايديولوجية أو فلسفة يجتمع عليها عدد من الدول فيوجّه مسارها إلى طريق الحق .

والولاء للوطن ، للدولة الوطن ، لأرضها ولشعبها ولحاكمها الشرعى ، له الاسبقية المنهجية فى جشطلت الولاء . فالدولة الوطن هى الوسيلة الأكثر فعالية لتحقيق الولاء لله (الغاية) ، وهى الكيان القادر على الاستمرار .

ومن حيث الواقع ، فاننا اذا ما ناقشنا موضوعات الولاءات الفرعية الاخرى فى جشطلت الولاء ، نجد أن « الفرد » عمره قصير ولا يستطيع العيش بمفرده ، كما أن « الاسرة » ذات عمر قصير أيضا وليست لديها امكانية الاكتفاء الذاتى والاستقلال عن المجتمع ، كذلك لا نستطيع أن نتصور عالمنا المعاصر وقد تعددت وحداته بعدد أفراده أو بعدد الاسر . أما بالنسبة للكيانات الاجتماعية الكبيرة فان التاريخ يعلمنا – منذ عصر الامبراطورية الرومانية أو عصر الامبراطورية العثمانية – أن مثل هذه الكيانات السياسية العريضة التى تضم شعوبا عديدة وتفتقر الى المقومات المشتركة لا يكتب لها الاستمرار ، وسوف تتحلل إن آجلا أو عاجلا الى كيانات أصغر حين تضعف القبضة الديكتاتورية الحاكمة . ولقد كانت محصلة التاريخ ، بعد أن عاصر الامبراطورية العالمية ، وعاصر النقيض فى صيغة كيانات القبائل والاقطاعيات فى العصور

الوسطى ، أن انبثقت عن كيان « الدولة القومية » فى عصرنا الحديث وأصبحت بمثابة الجماع بين هذين النقيضين (العالمية / القبلية) .

فالدولة القومية أو الدولة الوطن تمتلك من المقومات المشتركة كاللغة والتاريخ والثقافة والدين ، كما تمتلك من العناصر الاساسية : الارض والشعب والحكومة ، ما يجعلها كيانا متميزا – جشطلت – قادرا على الاستمرار ، وحتى اذا افتقرت الدولة الى متطلبات الاكتفاء الذاتى ، فان قدرتها ككيان محدد له امكاناته المادية والمعنوية ، فضلا عن قدرته على تطبيق « السياسة » بمعناها الشامل ، تستطيع من خلال العلاقات الدولية أن تحصل على هذا الاكتفاء الذاتى ومن ثم تتوفر لها الاستمرارية . وعلى ذلك فان تصور عالمنا الحديث وقد انقسم الى مائة وخمسين دولة أو أكثر قليلا ، هو أمر ممكن لاقامة العلاقات الدولية ، خاصة وأن هذه الدول المفردة تميل حسب القانهون الطبيعى الى أن تكون فيما بينها ما يشبه العائلات ، ومن ثم يتم الاختزال .

واذن .. اذا اتخذنا معيارى : الاستمرارية والقدرة على الاكتفاء الذاتى ، لكانت الدولة الوطن هى الاسبق بين موضوعات الولاءات الاخرى ، فهى الكيان الاجتماعى السياسى القادر على احتواء واعاشة كل من الفرد والاسرة ، كقدرته على الاستمرارية والتعايش مع الدول الاخرى .

ان الدولة وهى تمتلك هذه القدرات تكون هى الوسيلة الفعالة التى تستطيع أن تحقق الولاء لله فى صيغته المؤثرة والمفيدة والتى تعم آثارها وفائدتها كل أجزاء جشطلت الولاء فتعمل على وحدته وتجانسه ، وذلك بالطبع يفوق قدرات الفرد والاسرة . فالدولة تضع مناهج التعليم ، وتنشىء المعاهد التى تخرج الدعاة ، وتشرّع القوانين التى تحكم حركة الحياة ، وترسل البعثات الى مختلف البقاع وتستقبل الدارسين من مختلف الاقطار . ويكفى أن نلتفت فى مصر الى أثر الازهر على الدّعوة للاسلام منذ أكثر من

ألف عام ولا يزال ، حتى نعرف قدرة الدولة على تجميع جهود الافراد لنشر الدعوة وتحقيق الولاء لله .

وعلى ذلك فان الولاء الوطنى (للدولة الوطن) ، له الاسبقية على كل الولاءات الاخرى فى جشطلت الولاء ، ولكنها أسبقية منهجية لتحقيق الاسبقية الغائية للولاء لله . فاذا كانت العين دائما صوب الهدف والغاية ، فان الجهد دائما يوجه للوسيلة التى تحقق هذه الغاية . فالولاء للوطن ، أى حب الوطن ودعمه ونصرته ليكون وطن الامن والرخاء ، وطن القوة والعلم ، يجعل منه الوسيلة القوية الفعالة لاشباع حاجات المواطنين ولتحقيق الرسالة المأمولة .

ومن هنا نقول أنه اذا كان جشطلت الولاء أو البناء الكلى له يتألف من خمسة أعضاء الولاء الانانى والولاء الاسرى والولاء الوطنى والولاء الدولى والولاء العقائدى ، فان السمة الاساسية للولاء الحق أن يكون الولاء لله هو جوهر الولاء العقائدى للفرد ، وأن تكون له الاسبقية الغائية فى بنية الولاء ، فهو الراية التى تتجه اليها كل ولاءات الفرد وسلوكياته . كما أن أسبقية الولاء للوطن هى سمة أساسية للولاء الحق ، وهى أسبقية منهجية من حيث أن الوطن من الوجهة العملية هو الاقدر على تكثيف الجهود لتحقيق الغاية المرجوة .

ومع ذلك فان أسبقية الولاء الوطنى لا تعنى الغاء سعى الفرد - وبالتالى الأسرة - للجهاد الذاتى فى سبيل الله كلما سنحت له - أو لها - الفرصة ، فالوطن وان كان هو الوسيلة الأولى والأفعل لتحقيق الغاية الا أنه ليس هو الوسيلة الوحيدة .

وليس هناك تعارض بين الأسبقيتين : الولاء لله والولاء للوطن ، فالعلاقة بينهما هى علاقة الغاية بالوسيلة . وينبغى بالطبع أن تكون الوسيلة ملائمة لتحقيق الغاية . فلا

يمكن مثلا لدولة شيوعية أن تدعو للايمان باللهكذلك كلما كانت الوسيلة قوية كلما كانت أقدر وأسرع على الوصول الى الغاية المنشودة . ولا شك أن الوطـن يقـوى بولاء مواطنيه .

هذه الحقيقة تدركها كذلك العقيدة الشيوعية ، فغايتها تحقيق الحلم المثالـى وهـو الشيوعية العالمية ، ولكن ما هى وسيلتها لتحقيق هذه الغاية ؟، انها « الدولة » . وهذا ما عبر عنهلينين فى كتابه « الدولة والثورة » اذ اعتبر الدولة هى « الآلة » لتحقيق هذا الحلم المثالى . وعلى ذلك يظل الولاء الوطنى له الاسبقية المنهجية حتى فى العقيدة الشيوعية .

أما اذا تجسد الولاء العقائدى فى صيغة الولاء للعلم أو الولاء للانسانية وفقط ، كما يعتقد بعض العلماء والفلاسفة الذين يعتبرون أنفسهم وولاءهم وعلمهم ملكاً للانسانية بالدرجة الاولى قبل أن تكون فى خدمة أوطانهم ، نجد أن الواقع ينقض هذه المثالية المنشودة ، فاذا كان العلم مسألة عالمية فان العالِم هو أولا من صنع قومية معينة ومواطنا فى دولة معينة . وحتى اذا جاهر بعض العلماء والمفكرين بآراء وأفعـال تنـاهض اتجاهات أوطانهم فى بعض القضايا الانسانية أو السياسية ، مثل موقف كل من المؤرخ آرنولد توينبى والفيلسوف برتراندراسل من القضية الاسرائيلية الفلسطينية وقتما كانا ، فان مثل هذه المواقف - مع أهميتها ونبلها - لا تؤثر كثيرا فى القضيـة ولا تحسمها ، وانما موقف الدولة هو العامل الحاسم فى مثل هذه القضايا المصيرية .

ان العلاقة بين الولاء لله والولاء للوطن ، أو بين الولاء العقائدى والولاء السياسى ، تتضح جلية اذا ما التفتنا الى كيفية ممارستهما معاً فى أول دولة اسلامية التى أسسها نبى الاسلام عليه الصلاة والسلام فى المدينة المنورة بعد هجرته من مكة المكرمة [لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر] (الاحزاب - ٢١) .

ونرى أن الدافع الرئيسى وراء الاتجاه الى تأسيس « دولة » للاسلام - والله أعلم - أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد فطن الى أن « الدولة » ككيان اجتماعى سياسى هو الاقدر - كوسيلة - على نشر رسالته وحمل دعوته فى حياته ومن بعد مماته ، ومن ثم فان تأسيس هذا الكيان ، بأرضه وشعبه وحكومته ومؤسساته ، والولاء له ، ضرورة حتمية لاستمراره ودعمه . ولقد حرص الرسول على « الولاء للدولة الوطن » بما يتضمنه من ولاء له كحاكم لهذه الدولة . هذه الدولة الاسلامية الاولى ضمت بين رعيتها « الموالى » وقد كانوا رقيقا من أصل غير عربى ، كما ضمت « العرب اليهود » ، وكان الولاء الوطنى هو الذى يضمن المساواة فى الحقوق والواجبات بين الجميع : عرب وموالى ، مسلمين ويهود . ولكن حين غدر اليهود العرب وخرجوا عن ولائهم وتحالفوا مع المشركين فى غزوة الاحزاب ، سقط عنهم حق الحماية واستحقوا العقاب .

ومن ذلك نرى أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد ميز بين دوره كرسول للاسلام ودوره كحاكم لدولة المدينة ، ومن ثم فقد ميز بين الولاء الدينى والولاء السياسى . فهو كنبى للاسلام يعنيه بالدرجة الاولى الولاء للاسلام الذى من أجله بُعث ومن أجله أنشأ دولته ، فدعى الناس كافة ، أفراداً كانوا أو قبائل أو دولا ، للولاء للاسلام ، دعوة تقوم على الاختيار الحر ، فلا اكراه فى الدين . هذا الولاء للاسلام يخص فقط أمة الاسلام التى تكونت فى البداية من المهاجرين والانصار .

أما كونه صلى الله عليه وسلم حاكما لدولة المدينة فما يعنيه هنا هو الولاء للدولة - كوطن يتألف شعبه من العرب وغير العرب ، ومن المسلمين وغير المسلمين .

ونلحظ فى غزوة « بدر » أن التناغم كان كاملا بين الولاء الوطنى والولاء الدينى . فقد خرج الجيش للدفاع عن الوطن ضد المعتدين وفى نفس الوقت للدفاع عن الاسلام ضد المشركين . وقد كان الولاء نقيا لا تشوبه أنانية الذات والتطلع الى الغنائم ، ولا

ينقصه الطاعة التامة للقائد ، فكان بنياناً مرصوصاً يشد بعضه بعضا ، وكان النصر من عند الله . أما فى غزوة « أحد » ، فكانت الهزيمة تكمن فى نفوس المسلمين ، فلقد تضخم الولاء للذات الانانية على حساب الولاء الدينى والولاء الوطنى ، فاغتر بعض المسلمين بكثرة عددهم بالنسبة لغزوة بدر ، كما عصوا رسول الله ولم يحتفظوا بمكانهم فى ساحة القتال فأسرعوا لأخذ كل ما يمكنهم من الغنائم ، فكان الولاء مشوهاً منقوصاً ، فكانت الهزيمة .

اننا حين نناقش أسبقيات الولاء لا نعنى حتمية الصراع بين ولاءات الفرد ومن ثم وجب حسم الصراع لصالح هذا الولاء أو ذاك ، بل ان الامر لا يعدو مجرد وصف للولاء الحق كما نراه ، عسى أن يكون دليلاً صحيحاً لفرد أو لجماعة فى موقف أو آخر . ان الفرد السوى الذى يتمتع بالصحة النفسية ، ويدرك العلة الحقيقية لخلقه ، والمعنى الطيب لوجوده ، هو ذلك الذى ينجح فى الخروج من دائرة فرديته الضيقة ويتسامى بولائه .

ان التسامى بالولاء واتساع دائرته من المحيط الاصغر الى المحيط الاكبر كى تضم الاصغر والاكبر معاً ، كاتساع دائرة الولاء من الذات الى الاسرة كى تضمهما معاً ، واتساع دائرة الولاء من الاسرة الى الوطن كى تضم الذات والاسرة وكل الوطن ، ثم انفتاح الدائرة لتضم كل ذلك مضافاً اليه العائلة أو العائلات الدولية ، اسلامية أو عربية أو غير المنحازة ، ثم انفراجها على الانسانية جمعاء ، هذا الولاء الحق الذى يتسامى على منهج الله سبحانه وتعالى هو جوهر الفرد السوى وقوام الدولة الرشيدة ، وهو ما يجب أن يعم اذا أردنا حقاً السلام والرخاء لكل العالم .

* * * * *

□□ مقومات الولاء الحق

« الولاء لمن يلبى الحاجات » .. مقولة تكاد تصدق على كل الافراد والجماعات ، وتتحقق فى كل درجات البناء الهرمى للولاء . فاذا أشبعت الاسرة حاجات أبنائها نالت ولاءهم . واذا توفرت بالوطن حاجات الاسر والافراد استقطب ولاءهم . واذا تلقت الدولة الوطن احتياجاتها من العائلة الدولية التى تنتمى اليها منحتها ولاءها وحافظت على روابطها معها .. وهكذا .

ما الذى نحتاجه جميعا ؟.. نحتاج الغذاء والكساء والسكن والزواج وكل ما يحفظ لنا حياتنا ، نحتاج الامن والامان ، نحتاج الحب والانتماء ، نحتاج تقدير الاخرين لنا وتقديرنا واحترامنا لانفسنا ، نحتاج لان نحقق ذواتنا ونرى ما بداخلنا يتحقق فى خارجنا .

ونحتاج قبل كل تلك الحاجات الانسانية الاساسية وبعدها الى :

١ - الدين ..

فالدين الاسلامى هو الاساس المتين الذى يقوم عليه الولاء الحق . ان الاديان السماوية كلها تقع على محيط دائرة واحدة ، مركزها الله سبحانه وتعالى وله المثل الاعلى ، والولاء الحق هو وسيلة اليهودى والمسيحى والمسلم للتوجه نحو الله .. هى بوصلة واحدة فى يد الجميع يهتدى بها من يشاء الى طريق الحق .. الى نفس الغاية .

فالدين .. مهما اختلفت مسمياته بين يهودى ومسيحى واسلامى ، يدعو دائما الى الوحدة والسلام . يقول النبى محمد صلى الله عليه وسلم : « أنا أوْلى الناس بعيسى بن مريم فى الدنيا والآخرة ، ليس بينى وبينه نبى ، والانبياء أولاد عَلّات ، أمهاتهم شتى ودينهم واحد » (رواه أحمد والشيخان وأبوداود)

وانما تنشأ الفرقة والعداوة من الفهم الخاطىء للدين ، ومن التعصب الاعمى ، الأعمى بالجهل والانانية البغيضة . ولا شك أن المسئولية الاولى تقع على الاسرة والدولة ومن يتصدى للدعوة لتبصير الناس بجوهر دينهم . ومن ثم وجب الالتفات دائما الى نظام التعليم والى وسائل الاعلام والى حسن اختيار واعداد الدعاة .

ان الانسان المؤمن هو صاحب النفس المطمئنة ، هو الذى يمتلك البناء النفسى السوى ، فلا يعانى من صراعات فى الولاء ، ولا يرى صداما بين حاجاته الشخصية ودوره فى المجتمع وعلاقته بالله سبحانه وتعالى ، وانما يحيى بالانسجام والتناغم بينها جميعا . ولقد تنبه علم النفس أخيرا الى أهمية العلاج الدينى ، أى علاج الاضطراب النفسى وحل الصراعات الداخلية من خلال الدين ، ولعله أكثر طرق العلاج نجاحا اذا ما تم بالاسلوب الملائم للمريض - خاصة فى المجتمع المصرى والمجتمعات العربية كلها التى ترتكز على الدين وتجعله المحور الرئيسى لحياتها . ان الاصل هو أن تحيى النفس المطمئنة على ولاء لله سبحانه ، فان انحرفت قليلاً أو كثيرا فان أيسر السبل لتقويمها وأفعلها هو الدين [يا أيتها النفس المطمئنة ، ارجعى الى ربك راضية مرضية] (الفجر - ٢٧ ، ٢٨) . كما أن تقرير أن الدين أساس الولاء الحق يتضمن أن « الولاء العقائدى » يكون ولاءً صحيحاً سامياً .

على أن الدين قد يتوارى بعيداً أو قريباً حين يتحمس الفرد لايديولوجية ما أو يوجه جهوده الى تدعيم فكرة معينة أو لنصرة قضية بذاتها ، فاذا كانت تلك الايديولوجية أو الفكرة أو القضية تنسجم مع جوهر الدين ومبادىء الحق ، كالذى يدافع عن وطنه ضد عدو ظالم أو يكرس نفسه لتحقيق الديمقراطية أو لاسعاد البشر ، فان بنية الولاء فى مثل تلك التوجهات تقوم على الوحدة والاستقرار ، سواء كان الفرد مؤمنا أو ملحدا ، فالعبرة هنا بمدى أحقية ولائه والصدق الذى يشيع فيه ، والفارق بينهما أن المؤمن اذا كرس جهده لنصرة قضية ما فانه فى نفس الوقت يتسامى بولائه الى الغاية الاعلى .. الى المطلق .. الى الله سبحانه وتعالى ، اما الملحد فيتوقف بولائه عند حدود القضية ذاتها ويعتبرها نهاية الطاف . ولذلك فالمؤمن – من الوجهة الدينية – ينال جزاء الدنيا والأخرة ، والملحد يستحق جزاء الدنيا فقط .. ومن هنا فان دعوتنا الى الولاء الحق لا تقتصر على المؤمنين فقط بل نتوجه بها الى الناس كافة .

٢ - الحريـــة ..

أى وجود انسانى هذا الذى لا يؤسس على الحرية ! انه بلا حرية يصير عدما ، فسلب الحرية هو سلب للانسانية . لقد خلق الله آدم وفطره على الحرية ، حرية الطاعة وحرية المعصية ، وليبقى مسئولا عن اختياره . فآدم قد عبد ربه مختارا ، وأكل من الشجرة المحرمة مختارا . فوجوده الانسانى مرهون بتلك الحرية التى منحه الله اياها . فالولاء الحق الذى يحبه الله هو الولاء الذى ينبثق عن الحرية لا عن اذعان ، ويقوم على الحب لا على تعصُب .

٣ - العـــدل ..

فالحرية لا تكون الا بالعدل .. والا صارت فوضى . العدل الذى ينبع من ضميرك بأن تحب لاخيك كما تحب لنفسك . العدل الذى يفرضه ولى الامر بمساواته بين رعيته . فالفرد كما يحتاج الى الحرية يحتاج الى العدل والى القانون الذى تفرضه السلطة العادلة ، فالقانون يشكل رادعا لنوازعه ولنفسه الامارة بالسوء ، كما أنه فى نفس الوقت يحفظ له حريته من أى عدوان أو جور من قبل الآخرين .

٤ - الديمقراطيـــة ..

ولان الديمقراطية تتضمن قيمتى « الحرية والعدل » ، أصبحت هدفا ساميا لكل الافراد والجماعات على كافة المستويات الاجتماعية والسياسية . وعلى ذلك تظل الديمقراطية مقوما أساسيا للولاء الحق .

فاذا نشأ الفرد على الروح الديمقراطية الصحيحة فى طفولته ، فلا تفرقة غير مبررة بين الابناء ، ولا قهر أو طاعة عمياء ، واذا نشأ عليها فى مراحل تعليمه ، فلا فروق بين الطلبة الا بالعلم وبالاخلاق ، والمدرس قدوة فى المناقشة والاقناع ، واذا مارسها الفرد فى شبابه فى مجال عمله ووظيفته ، فالعطاء بحسب الانتاج والانتظام ، والادارة بالمشاركة وبالاهداف ، واذا رأى الفرد الديمقراطية الحقة تشيع فى ربوع وطنه وتسود مؤسساته السياسية والادارية ، فكما توجد الحكومة الشرعية توجد المعارضة الامينة ، وكما ينبثق الرأى الرسمى يتولد الرأى المخالف ، نقيضان يصنعان معاً الائتلاف القومى والجماع الناضج لصالح الوطن كله ، هذا الفرد الحر هو الذى يتمتع بالصحة النفسية مع الولاء الحق ، الولاء الذى يكرس صاحبه لعبادة

ربه وخدمة وطنه ، دون اجحاف لمطالب الذات أو اغفال لحقوق الاسرة أو ابتعاد عن المشاركة الانسانية الرحبة .

٥ - القــدوة والاســوة الحســنة ..

ان الفرد فى حاجة لان يرى القيم المجردة تتجسد بالفعل فى أشخاص بأعينهم ، ولان يشهد الولاء الحق محققا فى السلوك فى مختلف المواقف والادوار .

ومن المتوقع أن الطفل لا ينشأ على التضحية والايثار طالما يربيه أبوان أنانيان ، كما أن الصبى لا يتعلم الامانة والوفاء من مدرسين مهملين وكسالى . ان الدراسات النفسية تؤكد على الاثار الحاسمة للقادة والرؤساء على مرءوسيهم من خلال عملية التوحُّد اللاشعورى أو من خلال المحاكاة والتقليد . فالفرد عادة ما يستدمج فى ذاته القيم والسلوكيات التى يراها فيمن يتطلع اليهم كقدوة ، ومن بينها الولاء ، بطريقة لا شعورية وغير ارادية ، كما أنه أيضا قد يتعمد أن يسلك كما يسلكون .

ان القرآن الكريم ، وقد جاء بكل الحق والخير والجمال ، وجهنا الى رسول الله كمثال بشرى نقتدى به فى سلوكنا وولائنا ، فكان عليه الصلاة والسلام « قرآنا يمشى على الارض » [لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا] [الاحزاب - ٢١] . كما أكد القرآن على بشرية الرسول صلى الله عليه وسلم حتى تظل امكانية التأسى به أمرا متاحا ومشجعا [قل سبحان ربى هل كنت الا بشرا رسولا] [الاسراء - ٩٣] .

فما أحرانا أن ندرس سيرة الرسول خاصة من المنظور النفسى ، وقد عاش عليه

الصلاة والسلام أدواراً مختلفة ، ووازن بين مسئولياته فيها جميعا ، فكان الرسول كما كان القائد والحاكم والقاضى والمعلم والزوج والاب . فلنقتدى بمنهجه القويم فى تحقيق الوحدة والاستقرار والولاء الحق .

٦ - التربية والتعليم .. والتطبيع الاجتماعى السياسى ..

لاشك أن التربية والتعليم - بالمعنى الشامل لهما - يشكلان عاملاً أساسياً فى غرس الولاء الحق فى نفوس المواطنين . ان عملية التطبيع الاجتماعى السياسى التى يتعرض لها الفرد عبر مراحل حياته ، بدءاً من المنزل الى المدرسة الى النادى الى دور العبادة الى الاحزاب السياسة الى ميادين العمل والانتاج ، مضافا اليها وسائل الاعلام المقروءة والمسموعة والمرئية ويأتى « التليفزيون » فى مقدمتها ، لابد وأن يوجه اليها جميعا - وفى نفس الوقت - ترشيد علمى سليم ، حتى ينشأ المواطن مستقراً على الولاء الحق ، الولاء لله وللوطن وللاهل ، لا تزعزعه سموم الحرب النفسية أو شهوات الانانية المهلكة .

ان برامج تطبيع الولاء الاجتماعى السياسى ينبغى أن تتم بالاسلوب الملائم للمتلقى وبصفة عامة - الطفل تستثيره النواحى الانفعالية أكثر ، والشاب تستثيره الجوانب النزوعية والعملية أكثر . أما المتقدمون فى العمر فانهم يتفاعلون أكثر مع المثيرات المعرفية . كما أن هناك تباين من حيث سيادة الجانب المعرفى [المعلومات] أو الانفعالى [العاطفة] أو النزوعى [الفعل] فى الشخصية بين المتعلمين والأميين ، وبين النساء والرجال ، وبين الموسرين والفقراء .. الخ . ومن المهم جداً أن تقوم الدراسات العلمية التى تسهم فى المواءمة بين البرامج الاعلامية والشرائح الاجتماعية التى توجه اليها حتى يتحقق الهدف بالتفاعل الصحى الأخاذ . ومن المهم أكثر أن نقيس أثر البرامج الاعلامية قياسا صحيحا صادقاً حتى نطمئن الى فاعليتها .

٧ - الصـــــحة النفســــية ..

والولاء الحق يرتبط ارتباطا قويا بالصحة النفسية ، وهى ليست مطلبا قاصرا على الفرد فقط وإنما مطلوبة كذلك على مستوى الاسرة والمجتمع . فكلما كان الزوج والزوجة متوافقين متحابين يتمتعان بالصحة النفسية كلما كانا قادرين على توفير المناخ الصحى لنمو أولادهما - آباء وأمهات المستقبل - النمو السوى وغرس الولاء الحق فى نفوسهم، والعكس صحيح ، فاذا اتسمت العلاقة بين الزوجين بالانانية والعدوانية نشأ أولادهما على شعار « أنا ومن بعدى الطوفان » ! فان فاقد الشىء لا يعطيه .

وهكذا على مستوى المجتمعات والشعوب . فالمجتمع الذى يتمتـع بالوحـدة والاستقرار والصحة النفسية ، مجتمع الحرّية والعدل والاخاء ، مجتمع الحق والخير والجمال ، هو مجتمع .. الولاء الحق .

بسم الله الرحمن الرحيم

[قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربَّصوا حتى يأتى الله بأمره ، والله لا يهدى القوم الفاسقين] .

صدق الله العظيم

(التوبة - ٢٤)



المراجـــــــــــع

١ - أبو حامد الغزالى ، الامام: مختصر إحياء علوم الدين ، تحقيق وتعليق د. شعبان محمد اسماعيل ، مكتبة نصير ، القاهرة ، ١٩٧٨ ، ص ٢٦٥ .

٢ - أحمد بهجت ، الصحفى : أنواع الولاء ، مقال ، جريدة الاهرام ، القاهرة، ١٩٨٠/١٠/١٦ .

٣ - إريك فروم : الخوف من الحرية ، ترجمة مجاهد عبدالمنعم مجاهد ، الطبعة الاولى ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٧٢ .

٤ - بطرس بطرس غالى ، الدكتور ، ومحمود خيرى عيسى ، الدكتور : المدخل فى علم السياسة ، الطبعة الخامسة ، مطابع الاهرام التجارية ، القاهرة ، ١٩٧٦ ، ص ١٥٣ ، ١٥٤ .

٥ - جمال حمدان ، الدكتور : شخصية مصر ، الجزء الاول ، عالم الكتب ، القاهرة ١٩٨٠ ، ص ١٠ ، ١١ ، ١٦ .

٦ - جورباتشوف،ميخائيل : البيريستوريكا ، ترجمة حمدى عبدالجواد ، دار الشروق، ١٩٨٨ ، ص ٢٨ .

٧ - حامد زهران ، الدكتور : قاموس علم النفس ، دار الشعب ، القاهرة ١٩٧٢ .

٨ - دانييل لاجاش : المجمل فى التحليل النفسى ، ترجمة مصطفى زيور ، وعبدالسلام القفاش ، النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٧ ، ص ١٤ .

٩ - زكريا ابراهيم ، الدكتور : مشكلات فلسفية - المشكلة الخلقية ، الجزء السادس ، الطبعة الثانية ، مكتبة مصر ، القاهرة ١٩٧٥ ، ص ٩١ - ٩٨ .

١٠ - زكى نجيب محمود ، الدكتور : لكى يعتدل الميزان ، مقال ، جريدة الاهرام، القاهرة، ١٩٨٠/١٢/١٤ .

١١ - ساطع الحصرى : أبحاث مختارة فى القومية العربية ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص ٢٠ - ٢٨ .

١٢ - سيد محمد غنيم ، الدكتور : سيكولوجية الشخصية ، الطبعة الاولى ، النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٧٣ ، ص ٥٨١ - ٥٨٣ .

١٣ - عباس العقاد : التفكير فريضة اسلامية ، دار الهلال ، القاهرة ، ص ١٥٦

١٤ - عبدالبديع صقر : مختار الحسن والصحيح من الحديث الشريف ، مكتبة وهبة ، القاهرة ١٩٨٢ .

١٥ - عبدالجواد سيد عبدالجواد ، الدكتور : الظاهرة خطيرة ، مقال ، جريدة الاهرام ، القاهرة ١٩٨٠/١٠/١٥ .

١٦ - عبدالحليم محمود ، الدكتور ، الامام : الاسلام والعقل ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٠ ، ص ١٣١ .

١٧ - عبدالمنعم النمر ، الدكتور : ليكن ولاؤنا لله والوطن ، مقال ، جريدة الاهرام ، القاهرة ، ١٩٧٩/١١/٢١ .

١٨ - فاروق جويده ، الشاعر والصحفى : مقال ، جريدة الاهرام ، القاهرة ١٩٨٠/١٠/٢٨ .

١٩ - فرج عبدالقادر طه ، الدكتور : علم النفس وقضايا العصر ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

٢٠ - لمعى المطيعى : مصر وتيارات الولاء المزدوج ، مقال ، جريدة الاخبار ، القاهرة ، ١٩٨٠/٢/١٢ .

٢١ - لويس عوض ، الدكتور : مقال ، جريدة الاهرام ، القاهرة ١٩٨٠/٩/٩ .

٢٢ - محمد زكى عبدالقادر ، الصحفى : الظاهرة ليست خطيرة ، مقال ، جريدة الاهرام ، القاهرة ١٩٨٠/١٠/٥ .

٢٣ - محمد شعلان ، الدكتور : الاضطرابات النفسية فى الاطفال ، الجزء الاول ، الجهاز المركزى للكتب الجامعية والمدرسية ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ٤٤ - ٨٩ .

٢٤ – محمد عثمان نجاتي ، الدكتور : القرآن وعلم النفس ، دار الشروق ، ١٩٨٢ ، ص ٤٦ – ٤٨ .

٢٥ – محمد فؤاد عبدالباقي : المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم ، مؤسسة جمال للنشر ، بيروت .

٢٦ – محمد فكرى عبدالفتاح ، الدكتور : الهجرة بين الحقوق والواجبات ، مقال ، جريدة الاهرام ، القاهرة ، ١٩٨٠/١٠/٢٨ .

٢٧ – نجيب محفوظ ، الاديب : الهجرة بين الدعاية والولاء ، مقال ، جريدة الاهرام، القاهرة ، ١٩٨٠/٩/٢٤ .

٢٨ – هول ، ولندزى : نظريات الشخصية ، ترجمة فرج أحمد فرج، وقدرى محمود حفنى ، ولطفى محمد فطيم ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة، ١٩٧١ ، ص ١٧٤ ،١٧٥ ، ٢٣٢ ، ٢٥٦ ، ٤٢٤ ، ٥١٩ .

29. Benton, W., Encyclopaedia Britannica, V. 14, Chicago, USA, 1963.

30. Cattell, R., The Scientific Analysis of Personality, Penguin Books, 1967.

31. Elms A., Personality in Politics, Harcourt Brace, Jovanovich, Inc., 1976.

32. Hogan, Robert, Personality Theory, New Jersy, Prentice-Hall, 1976, P. 66, 110, 147.

33. Jaros, D. & Grant, L., Political Behavior, Blackwell, 1974.

34. Kohn, H., Nationalism, USA, Anvil, Original, 1955.

35: Organski, A.F.K., World Politics, New York, 1947.

36. Renshon, S.A., Psychological Needs and Political Behavior, New York, The Free Press, 1974.

37. Rushton, J.P., Altruism, Socialization & Society, New York, Prentice-Hall, Inc., 1980, P. 73, 85.

38. Stone, W.F., The Psychology of Politics, New York, The Free Press, 1974, P. 90.

****

ملحق

الولاء فى الإسلام
(مدخل نفسى اجتماعى)

بحث للمؤلف قدمه فى المؤتمر الدولى
لعلم النفس عبر الحضارى
(استانبول ١٩٨٦)

achieved by giving teleoological priority to loyalty to God and methodical priority to loyalty to the country. It seems that the the two nations fighting in the Gulf War — Iran and Iraq — have reversed these two priorities. Both of them have the state with its power over its neighbour as an aim.

In Lebanon, where the civil war has been going on for more than ten years, loyalty to the family, the tribe or the sect is given priority in the loyalty gestalt at the expense of loyalty to the nation and its unity. Religion has been exploited in justifying that war and covering such sectarian selfishness though religion despises fancaticism and calls for peace.

In the previous wars between Egypt and Israel beginning from 1948 up till 1973, some Egyptians fought defending the Egyptian land first, other Egyptians fought to defend the Arab Palestinian case first and there were others who fought in order to defend Islam first. Though the result is the same, the significance differs according to the concept of loyalty and its priorities. On the other hand, the Israelis might bave had various attitudes and priorities. In all cases, we hope that such different loyalties have had their right directions. Egypt and Israel are looking forward to normalizing relations, establishing total peace between them and expanding such peace so as to prevail all over the whole area. "And Allah doth call to the home of Peace." (10:25).

sage which is hoped for. However, methodical priority concerning loyalty to the country does not mean overlooking the individual's efforts to struggle for the sake of God whenever possible. Though the country — state is the first means of achieving the goal hoped for, it is not the only means. There is, and there should be, no contradiction between loyalty to God with its teleological priority and loyalty to the country with its methodical priority. The relation between both of them is a relation between the aim and the means. Moreover, working for the one backs the other.

In fact, establishing the first muslim state-the Madinah State-under prophet Mohamed's leadership shows that he has realized that the "state" as a political and social entity is the most capable means of spreading his message through his life and after his death. This is what really happened. When the Madinah state was first established, the number of muslims was only less than a thousand muslims. Now, the number of muslims all over the world is nearly one billion muslims. This first Islamic State included as its citizens Arabs and non-Arabs, muslims and non muslims as God Almighty says :

> "Say (O Muslims). We believe in Allah and that which is revealed unto us and that which was revealed unto Abraham, and Ismael, and Isaac, and Jacob, and the tribes, and that which Moces and Jesus received, and that which the Prophets received from their Lord. We make no distinction between any of them, and unto Him we have surrendered." (2:136)

8. International Applications of the Concept of Loyalty

The presenter has stated that love and peace can be

his family, his nation and all humanity will be a form of worshipping God and a consolidation to his loyalty to God. So, there emerges no conflict or contradiction; instead, happiness for the individual, stability for the society and peace for the whole world are achieved.

7. Priorities of the true Loyalty

Intuitively, loyalty to God — to religion has the teleological priority in the loyalty gestalt. It is the individual's design which saves him from the evils of selfishness; it is the family and the nation's design which keeps them away from the dangers of fanaticism; it is also the design of every international get-together which pushes it forward to love and peace.

Loyalty to the country — to one's land, people and lawful ruler has methodical priority in the loyalty gestalt because the country-state is the social and political entity capable of holding and supporting both the individual and the family in the same way by which it lives and establishes relations with other states. Besides, the country-state is practically the most capable and effective entity that would achieve loyalty to God. The state sets programmes of education and issues the laws which organize the rhythm of life inside it. It is both affected by and affects the process of all humanity through its membership in the international family. It is adequate to have a look at the influence of Al-Azhar (Islamic institution) in spreading religion and science for more than a thousand years. Loyalty to the country, i.e. loving and backing the country for development or victory so as to be the country of security and prosperity, science and strength, freedom and justice, makes that country the effective and strong means of satisfying the needs of the citizens and realizing the mes-

be loyal to his family with all its members such as : "Thy Lord hath decreed that ye worship none save Him, and (that you show) kindness to parents" (17:23). God also states that : "And of his signs is this : He created for you helpmeets from yourselves that ye might find rest in them, and He ordained between ye love and mercy" (30:21).

Loyalty to all humanity and all what it includes of peoples and communities is manifest in this comprehensive verse : "O mankind! .. We have created you male and female, and have made you nations and tribes that you may know one another (establishing sound relations), ... the noblest of you, in the sight of Allah, is the best in conduct" (49:13).

The verse opens with addressing all people ensuring that all of them are from one origin. Hence, there is no reason that could justify racial fanaticism. Yet, that common origin does not prevent distinction between people and their division into different nations, communities and tribes. Every nation has its own character. Such distinction should be a motivation and a reason for knowing and establishing friendly relations between nations and societies so as to achieve integration and harmony amongst them. It is a good knowledge through which individuals, communities and nations find out that they are brothers in humanity which has one origin and one fact; they are equal in their worship to God the One and ONLY. It is worth mentioning, in this context, Mohamed's famous saying : "You shall not go to Heaven until you believe in God; and you shall not believe in God until you love one another."

Thus, it is clear that loyalty to God includes all other loyalties and achieves harmony in the loyalty gestalt as a whole. If the individual, or the nation follows the path of God and the instructions of religion, his loyalty to himself,

6. The True Loyalty

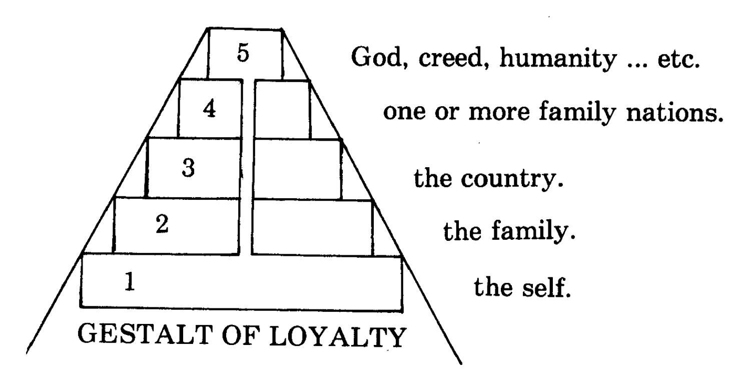
The true loyalty is the good gestalt which combines strong unity with sound dynamic interactions amongst its members. In such good loyalty the required equilibrium between the sub-loyalties is achieved. There is no contradiction between the individual and the society, the country and the creed. What is there is an integration between roles and harmony of goals. Islam clearly specifies the goal and application of the true loyalty — loyalty to God — which combines generalization with distinction and wholeness with individualization. It is a general loyalty in the sense that it is a quality possessed by all people by nature, though it is manifest in believers and hidden in disbelievers. It is unique because it is directed to God the One and Only. Still, it is a comprehensive loyalty for it includes all the other loyalties in their right form : loyalties to the self, the family, the nation and all humanity. Both such uniqueness and comprehensiveness realize an equilibrium for the loyalty gestalt and harmony for individual as well.

The Glorious Koran clarifies in various contexts that sub-loyalties, in their right form, to different objects are similar to streams flowing in the main river which is loyalty to God. Besides, prophet Mohamed's life — which is a practical application to what is mentioned in the Koran — confirms that meaning.

Concerning loyalty to the self and taking into consideration the individual's ambitions and needs, God Almighty states "But seek the abode of the Hereafter in which Allah that given thee and neglect not thy portion of the world." (28:77). The Lord also says : "And be not cast by your own hands to ruin, and do good" (2:195).

There are various verses which urge the individual to

rarchy. The notion of creed-loyalty is an abstract one which includes religion, humanity, ideologies ... etc. But loyalty to God, in particular, remains the most sublime. Needless to say that such sub-loyalties include nearly all environmental objects present to polarize the individual's loyalty. The following figure presents the loyalty gestalt as regarded by the presenter :



The above hierarchy presents the sublimation system in the loyalty Gestalt. The two lines which are bending down the hierarchy are meant to ensure the unity of loyalty despite its division into sub-loyalties for it is a dynamic gestalt. They are also meant to ensure that creed-loyalty, or loyalty to God in particular, includes simultaneously all the lower loyalties ensuring realizing an equilibrium and stability for the loyalty gestalt. The perpendicular channel in the middle of the hierarchy means that there is a direct communication between the individual at the base of the hierarchy and God on top of it.

Mohamed has said : "Believers, in their love, respect and sympathy with one another, are like one body, if one part of it aches, the other parts react by passing the night awake with pain." This example of the "body" is worth contemplating. The "body", as presented by Mohamed, is a "gestlat" or a whole unity which is divided into different members where each member has a specific role. The body is in its best form if integration and harmony can be achieved in that system of roles. It could be noticed that every member has a certain degree of importance for the life and the strength of the body. In general, the heart is more important than the arm. Besides, the degree of importance of one and the same body can vary in different situations; for example, the importance of the eye reaches a climax when watching a football match, diminishes when attending a concert and reaches a minimum when sleeping (law of membership in the gestalt theory).

Thus, loyalty is a gestalt, a whole unity which is divided into sub-members which affect and are affected by one another. However, one of these sub-members may often have the main influence and the leading role of the loyalty gestalt and forces its existence and demands on it.

The presenter concludes the structure of loyalty in a hierarchy which consists of five sub-loyalties; loyalty to the self (selfishness) forms the base of the hierarchy, then loyalty to the family (or to the tribe). In the middle of the hierarchy we have loyalty to the country (the country here means the country-state as it is presented in our modern times), then we have loyalty to the family-nations.

The international reality introduces different family nations like Islamic Conference Organization, The Arab League, The Western Bloc, The Eastern Bloc and the non-aligned countries. Loyalty to creeds is on top of the hie-

between the acquired and the inherited, the conscious and the unconscious; the individual is then exposed to psychic disorder in his life and he goes to hell in his other life.

4. Loyalty Has Grades

Prophet Mohamed has clarified through his life how the true loyalty can be achieved in its perfect form. Still, Islam admits the truth of differential psychology and the difference between both situations and the objects of loyalty be it God, the King, the president, the nation, the parents, or the self. Thus, loyalty could differ in quantity (much or little) and in quality (love or hatered, support or enmity). Of course such grades of loyalty are met by similar grades of reward and punishment : "and that every soul may be repaid what it hath earned. And the will not be wronged" (45:22). The grades of loyalty then can be arranged in a continuum : at the far right we have the grade of prophets and at the far left the disbelievers.

> "Allah hath conferred on those who strive with their wealth and lives a rank above the sedentary. Unto each Allah promised good, but He hath bestowed on those who strive a great reward above the sedentary". (4:95)

5. Loyalty is a Gestalt

The most becoming psychological theory for founding a theoratical structure for the concept of loyalty — from an islamic perspective — is the gestalt theory. Mohamed's famous saying may summarize the principles and laws which that theory includes and which the structure of loyalty is subject to.

"And remember when thy Lord brought forth from the children of Adam, from their reins, their seed, and made them testify of themselves, (saying) : Am I not your Lord? They said : Yea, verily. We testify. (That was) lest ye should say at the Day of Ressuruction : Lo! of this we were unaware". (7:172)

This verse clarifies — from an Islamic perspective — that loyalty in general and loyalty to God in particular is a hereditary aptitude which lies in the souls of all mankind. But the fusion between the soul and the body and man's envolvement in his body's needs and his secular needs suppresses this innate quality and causes it to fall into the unconscious. We mention here Jung's phrase that God is an archetype in the collective unconscious. There might emerge in the conscious other loyalties under the influence of environmental factors and the greed of the self which forms a strain on the individual. Hence the necessity of sending prophets to mankind in order to reform man's direction and loyalty, back to his good nature. "So set thy purpose (0 Mohamed) for religion as a man by nature upright — the nature (formed) of Allah, in which He hath created man" (30:30) So, if man goes through his life in accordance with his good nature and has chosen the way of life which reflects and realizes that true loyalty, he will be a content happy person who is able of coping with the problems he faces; that is to say that his conscious is in harmony with his unconscious, what he has acquired and chosen is in harmony with what he has inherited and what God has ordained for him. But if the individual deviates from his own nature — from the true loyalty — loyalty to God, under the influence of unhealthy environment or "From the evil of the sneeping whisper, who whispereth in the hearts of mankind" (114:4&5), he learns and chooses what is contrary to his nature which results in a conflict

The Koran expresses this polarity : altruism versus egoism through its description of how the "Anssar" received the "Mohajereen" coming to them from Mecca during the Higira (Mohamed's flight to Medineh) as they gave them food, shelter and money with all love and contentment in spite of their poverty and need. The Koran states, depending on that incident, that the one who could get rid of selfishness and miserliness would be indeed the winner in his life.

The Koran states :

"And (it is) for the poor fugitives who have been driven out from their homes and their belongings, who seek bounty from Allah and help Allah and his messenger. They are all loyal."

Those who entered the city and the faith before them love those who flee unto them for refuge, and find in their breasts no need for that which hath been given them, but prefer (the fugitives) above themselves though poverty became their lot. And whose is saved from his own avarice- such are they who are successful". (59:8&9)

3. Loyalty : Acquired and Innate, Conscious and Unconscious

Islam accepts contrasting psychological concepts : acquisition and innatism, conscious and unconscious. The Glorious Koran includes clear implications to such concepts that could have been enough for muslim scientists, hundreds of years ago, to be organized in the form of what we may call "Islamic Psychology".

As for the innate basis of loyalty, the Koran states :

2. The Concept of Loyalty in Islam

In Arabic. the language of the Koran, the word "walaa" (loyalty) means both love and backing for development or victory. It should be mentioned here that the presence of "love" in "loyalty" excludes any change on its part into mere submission due to some fear or subdual. Love ensures that loyalty, would emerge from a free wishful will. It is worth mentioning that the Koran states broadly and exceptionally the meaning of the word "loyalty". Not only does loyalty mean that the loyal individual has certain duties towards the object he is loyal to; but it also means that that individual has rights. The Koran states : "my Protecting Friend is Allah who revealth the Scripture. He befriendeth the righteous" (7:196). This verse shows that the relation between the individual and his God does not in one direction but it goes in a circle where it carries love and obedience from the individual to his God and carries love, giving and protection from God to his worshippers.

Islam has made it clear that loyalty includes a polarity where altruism presents the positive pole and egoism pre sents the negative one.

Intuitively, loyalty implies altruism which excludes egoism. Loyalty is the outcome of the conflict and the interaction between these two opposite poles. The extent of the individuals giving up egoism reveals his altruism. Along with Lagache, a part of egoism, which is selfishness (narcissism), is similar qualitatively to the libido energy invested in external objects. The total of interest in external objects and in the self is a fixed quantity. The more man loves himself, the less he loves other external objects, and vice versa.

LOYALTY IN ISLAM
A PSYCHO-SOCIAL APPROACH

BY

SAMIR FARAG*
INSTITUTE OF STRATEGIC SCIENCES
CAIRO, EGYPT

1. Loyalty, Religion and Psychology

There is a close relation between religion and psychology. Not only does religion share with psychology the same goal which is trying to achieve man's harmony and happiness, but it includes all the schools of psychology as well. Islam explicitly calls for showing insight into the self (psych). The Koran states "And in yourselves can ye then not see ?" (51:21)**1 . Besides, if one analyses Prophet Mohammed's saying : "Deeds depend on intentions", one may find it a saying that includes, in a good gestalt, behaviourism, depth psychology and free will.

Loyalty, as a psychological phenomenon, has not yet received adequate study despite its utmost importance on all levels : be it the individual, the community, the society or the nation. However, loyalty is the first subject considered by all religions in general. It is loyalty that gives meaning, an aim, to life. Without loyalty, one's life gets hollow and void of meaning. It could be said as a cogito : "Iam loyal, then I exist."

Address : 1, Mohamed Afify St. Hegaz Square, Heliopolis, Cairo, Egypt.
Tel: (002)02_2443477

This verse and the verses hereafter are from a good translation of the meaning of the Glorious Koran. Yet, the Koran, in its Arabic original version and as a heavenly Miracle, often suggests more broad and profound meanings. (The Koran: Sura 51 : Verse 21)

Pickthal, M.M. The Meaning of the Glorious Koran : an explanatory translation, Delphi : Taj Co., 1985.

APPENDIX

LOYALTY IN ISLAM

A PSYCHO-SOCIAL APPROACH

BY

SAMIR FARAG

Vice President
Institute of strategic Sciences

A paper submitted for presentation at
8.1 A C C P Conference
Istanbul, Turkey
July 6-10, 1986

رقم الايداع ٢٠٣١/ ١٩٨٩